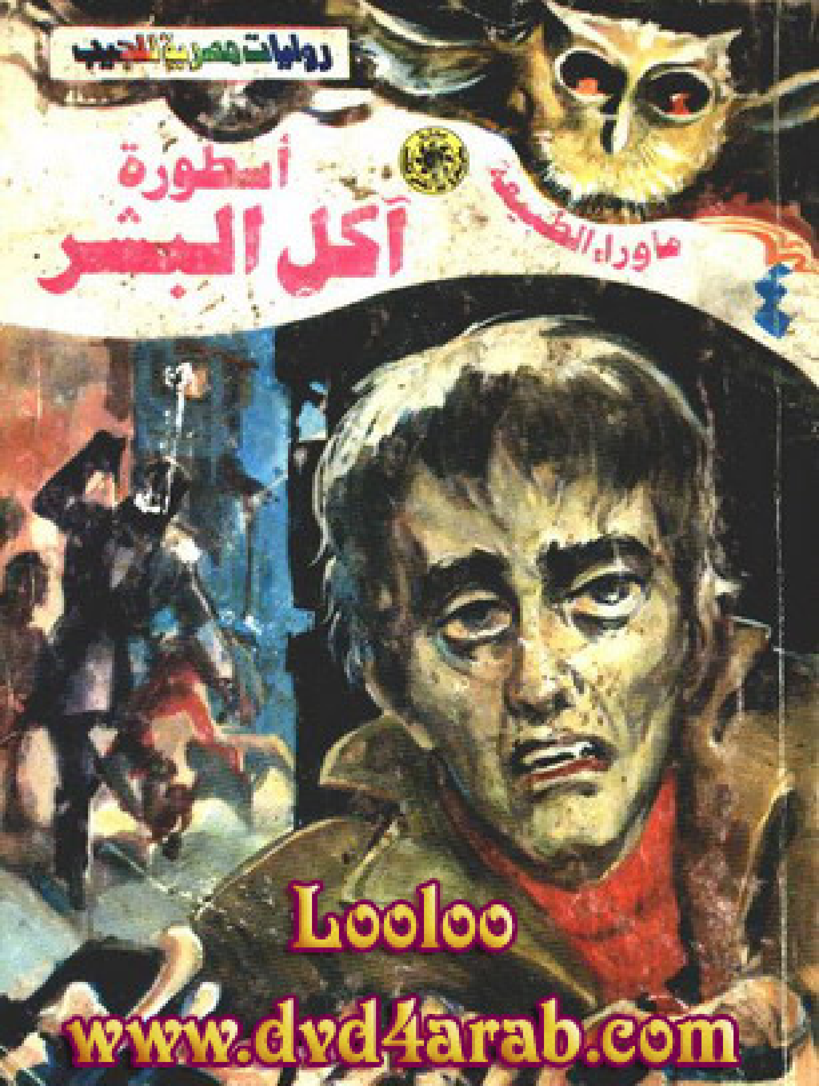

روايات مصرية للجيب
ما وراء الطبيعة
أسطورة
آكل البشر
4
Looloo
www.dvd4arab.com



أسطورة أكل البشر

مقـــدمـة..

قبل أن أحكى قصتى التالية ، اسمحوا لى أن أعرفكم بنفسى مرة أخرى ولايتململن منكم أولئك الذين قرءوا هذه المقدمة مرات عديدة قبل ذلك ، لأنها ضرورية .. لمن لايعرفنى منكم كى يعرفنى .. ولمن يعرفكم منى كى لاينسانى ! .. وأنا لاأحب أن تنسونى ..

أنا الدكتور (رفعت إسماعيل) .. الطبيب المصرى الذى يزحف الآن نحو السبعين من عمره ، ويعيش وحيدًا مع جبل من الذكريات التى كانت مريعة يومًا ما ، ثم غدت ـ بمرور السنين ـ مجرد خواطر باسمة من أيام شبابى ..

لقد أسعدنى الحظ فى حياتى ، بأن يسدد خطاى إلى كل مكان يغفو فيه مصاص دماء ، أو يجوبه شبح ؛ أو يجول به وحش .. ولكم من مخاطر واجهت .. ولكم من مؤامرات كشفت .. ولكم من أسرار أدركت ..

وهأنذا لم أزل قادرًا على الاستمتاع بالحياة ، وعلى النوم ملء جفونى وعلى الإمساك بالقلم وكتابة هذه السطور ..

والآن سنعود بالزمن إلى عام ١٩٦٥ .. وأنا فى الأربعين من عمرى ، حين تعرفت لأول مرة على آكل لحوم البشر !..

ولم يكن هذا فى أحراش إفريقيا ، ولا صحارى أستراليا ، بل هناك فى العمارة الأنيقة التى أعيش بها فى الدقى ..

ولكن .. لماذا أحرق قصتى قبل أن أكتب حرفًا منها ؟!

اقلبوا هذه الصفحة .. وستفهمون كل شىء ..

* * *

١ ـ إننى أرتاب !

القاهرة فى ١٢ ديسمبر ١٩٦٤

أخى العزيز (عادل) :

لقد ترددت كثيرًا قبل كتابة هذا الخطاب ، من ناحية لأننى لم أعودك على أننى ذلك الشخص ، الذى يمسك القلم ويكتب الخطابات كباقى خلق الله .. ومن ناحية أخرى لأننى أعرف انشغالك الدائم فى عملك ، مما يضيف بهذا الخطاب ـ وضرورة الرد عليه ـ عبئًا جديدًا إلى أعبائك ..

كيف حالك أيها الصديق ؟ وكيف حال عائلتك ؟!..

لقد عدت من أحد المؤتمرات العلمية فى اسكتلندا ، منذ حوالى خمسة شهور .. وأكاد أسمعك تقول : اسكتلندا مرة أخرى !.. نعم .. اسكتلندا مرة أخرى ، بعد رحلتى القديمة من أجل رسالة الدكتوراه فى جامعة داندى ..

هل تذكر (ماجى) ؟!.. هل تذكر قصائدى السخيفة التى صدعت رأسك بها ـ وكلها قصائد عربية لن تفهم هى حرفًا منها ـ ، وجولاتنا على كورنيش الإسكندرية فى سان ستيفانو ، نتناقش حول القرار الخطير .. هل أهاجر من مصر وأعيش هناك معها للأبد ، أم أنسى الأمر برمته ؟!.. كنت أريد أن أتزوجها ، وأريد ـ فى الوقت ذاته ـ أن أعيش فى مصر .. ذلك الاختيار الذى جعلته (ماجى) مستحيلًا ..

ولكم من مرة حاولت إقناعى بالهجـرة، ولكنـى رفضت.. هل تصدق أننى قابلت (ماجى) عند الأستاذ (جيمس ماكلوب) وكانت لم تتزوج بعد؟!.. لقد حدثت أشياء كثيرة ، وواجهنا أخطارا مروعة معًا ، مما جعل روحينا تتمازجان أكثر من ذى قبل..

وللمرة الثانية انتزعتها من روحى ، كأنك تحاول اقتلاع ضرس سليم من فمك دون تخدير..

ما علينا .. المهم أننى قد عدت إلى شقتى الجميلة ، وبدأت فى إجراء بعض التجديدات .. مثلًا قمت بتركيب ورق حائط ، وغيرت قطع الأثاث ، واستبدلت بالمصابيح العادية كشافات نيون أنيقة ، (كما جرت الموضة فى هذه الأيام) .. إلا أن شعورًا من عبثية الأمر كله ، ينغص على مشاعرى .. من أنا ؟.. وماذا أفعل ؟.. وما الهدف من حياتى ؟

إننى - كمهدى - ذلك الذئب الوحيد الذى لا يملك أصدقاء ولا زوجة ولا أهلًا ، إنهم يعيشون فى عالمهم الخاص - فى كفر بدر - ولا يعبئون كثيرًا بمشاكلى ، طالما لم أختر الحياة معهم .. ويبدو أن (رضا) أخى - بعد موضوع النداهة الذى حكيته لك - قد صار يؤدى للأسرة كل ما قد تحتاجه منى ..

لست إنسانًا تعسًا إلى الحد الذى قد تظنه ، لكنى - بالقطع - لست إنسانًا سعيدًا ..

ومحاولًا إزالة هذه السآمة التى تخيم على روحى، بدأت أتعرف على الجيران..! هل تصدق أن (رفعت) صديق صباك يتعرف على الجيران؟.. صدق كل شىء فى هذا الزمن الغريب؛ لأنى لم أعد نفس الشخص البرّى الذى تعرفه..

وفى العمارة التى أعيش بها ، توجد عشر شقق مسكونة ، وخمس شقق مغلقة بالمفتاح ، هناك لواء شرطة قديم - ربما كنت تعرفه - (اسمه محمد حليم) .. يعيش مع زوجته بعد أن تزوج أبناؤهما جميعًا .. وهناك مدرس مواد اجتماعية له أسرة كبيرة ، وهناك مهندس وزوجته وابنتاه ، وهناك طبيب آخر غيرى .. الخلاصة أن كل الأسر أسر مصرية تقليدية جدًا .. طيبون ودودون ، لكنهم لن يفهمونى أبدًا ولن يجود أحدهم علىّ بحديث ذكى ينعش روحى ، بعد كل الضغوط التى عانيتها ..

شخص واحد أعتقد أن له أعماقًا - وإن كنت لا أعرف كنهها - يعيش فى نفس الطابق الذى أعيش فيه .. وهو شاب فى الثلاثين من عمره ، صموت وحاد النظرات ، ولون بشرته غريب جدًا ، وهو ضابط بحرى - كما قال لى البواب - يعيش وحده ولا يصادق أحدًا ، ولا يتحدث مع أحد .. وقد اعتاد أن يتغيب شهورًا عن شقته ، ربما كان يقضيها على سفينة ما فى عرض البحر ، يدفع قبلها

الإيجار مقدما ، ويترك مبلغا لدفع فواتير الماء والكهرباء مع البواب ..

أعتقد أننى ـ لو استطعت كسر حاجز التحفظ ـ لربما وجدت لديه شيئا من الذكاء والثقافة .. لقد تعلمت دائما أن أحترم الصامتين ، وأرى فيهم أعماقا رائعة .. فإذا تكلموا اكتشفت أى مغفل كنته ...!

لكنى سأحاول التعرف على هذا الفتى ..

والآن لاأجد أخبارا أضيفها إلى خطابى .. لكنى أطمع فى رد مفصل منك يذيب حاجز المسافات والسنين .

ودمت لى ..

المخلص : رفعت إسماعيل

* * *

الإسكندرية فى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٤

عزيزى رفعت :

تلقيت خطابك فى سعادة ، لأنك لم تزل تذكرنى بعد هذه الأعوام .. وأسعدنى أكثر أنك لم تزل حيًا ، بعد كل هذه المصائب التى تطاردك فى انجلترا ورومانيا ، وحتى فى قريتك البائسة .. واضح من كلامك أن مصيبة أخرى قد لاحقتك فى اسكتلندا ، الأمر الذى يقنعنى أنك إنسان منحوس ، إن لم يبحث عن المشاكل ، فالمشاكل لابد باحثة عنه ..

والآن اسمع كلامى يا (رفعت) .. كف عن الترحال ؛ لأن من رأى أكثر ، هو بالقطع معرض لأخطار أكثر .. لماذا لاتكف عن لعب دور الذبابة ، التى لاتستقر فى مكان ؟.. لماذا لاتصير كالآخرين ؟.. لماذا لاتتزوج ؟..

إن مشكلتك هى كونك ـ بصراحة ـ مغرورًا .. ولأنك مغرور تحسب أنك أذكى من أن تعيش حياة الآخرين ..

اسمع نصيحتى ، وحاول أن تبقى فى بيتك ، وأن تتعرف على جيرانك الظرفاء ، وأن تشترى جهاز تليفزيون مثلى ، لأنه أعجوبة حقيقية(*) ! أمامه نجلس أنا (وسهام) و (أشرف) ابنى نشاهد العالم كله ... ونحن آمنون فى بيتنا ..

أنا فى أفضل حال والحمد لله ..

لكن ينغص حياتى ها هنا ، تلك المشكلة التى نواجهها فى مديرية الأمن ، وهى هذه السلسلة الغامضة من الجرائم الشنيعة ، التى لن أحكيها لك حتى لا تؤرق منامك .. لكن هناك شيئاً واحدًا أقوله لك : إننى أرتجف فى كل ليلة ، وأسأل الله أن يحفظ أبناءنا وأحبابنا من هذه الأشياء المروعة ..

(*) تذكر أن هذا الكلام فى عام ١٩٦٤

أعتقد أنك لاتعرف شيئاً عن هذا الموضوع؛ لأنك في القاهرة أولا ، ولأن تعتيمًا إعلاميًا مكثفًا قد فرض على هذه القصة ، حتى لاتحدث ذعرًا عامًا ..

أنا مشغول الآن ..

لذا استميحك عذرًا في إنهاء خطابي ، وأنتظر منك خطابات طويلة ممتعة كعهدنا بك قبل أن تنسانا .

وشكرًا ...

أخوك : عادل توفيق

* * *

القاهرة في ٢٤ ديسمبر ١٩٦٤

أخي (عادل) :

إنني أتساءل عن حال الجو عندكم في الإسكندرية ، فالجو هنا عاصف والأمطار الرعدية لاتتوقف .. والبرد يكاد ينفذ للعظام فيجمد نخاعها ..

أنا جالس الآن في الفراش تحت الأغطية الثقيلة .. وجو الغرفة دافئ خانق ملوث بالكيروسين ، بسبب تلك المدفأة اللعينة التي أهديتها لي منذ ست سنوات ، ويالها من هدية !! ..

أرشف كوبًا من الشاي الساخن ، وأدخن في شراهة ، كأن كل هذا الدخان لايكفيني كي أختنق ! ..

لقد قرأت خطابك ، وقلت : مرحى ! ..ها هو ذا صديق صباي قد نال رتبة (عقيد) ، ولم يعد لديه وقت كاف ليكتب خطابًا محترمًا لأمثالي ! ، ثم قلت لنفسي إن هذا الرجل مشغول ، ولديه أسرة وجهاز تليفزيون ، مما يجعل هذه السطور التي أرسلها تفضلًا جمًا منه ...

أما عني أنا ، فليس هناك مايشغلني ، سوى محاولتي التودد إلى الجيران ، وخاصة ذلك الشاب الذي حدثتك عنه ..

إن هذا الشاب غريب جدًا ..

أكثر من مرة دخل شقته أمامي ـ أو سمعته يفعل ـ وأضاء نور الصالة ، فإذا ذهبت وقرعت بابه لم يفتح لي .. ستقول إنه يتهرب مني لنفور شخصي تجاهي .. ولكن من أدراه أنني أنا الطارق(*) ؟

وفي كل ليلة ـ في منتصف الليل ـ أسمع صوت رتاج شقته يُفتح ، وصوت خطواته على درجات السلم .. فأين يذهب في هذا الوقت ؟ .. ولماذا لايطفئ أنوار شقته مادام خارجًا ؟! ..

(*) لم تكن (العين السحرية) التي تركب في الأبواب لمعرفة الطارق معروفة في ذلك الوقت ..

إننى قد وجدت هدفًا لابأس به لحياتى ، ألا وهو مراقبة هذا الشاب ، وإماطة اللثام عن حياته الخاصة .. ولاأكتمك أن شعورًا غامضًا ينتابنى ، بأن هذا الشاب يراقبنى بنفس الحرص !..

لقد سأل البواب عنى منذ أسبوع .. وقد أخبره الأحمق بكل شىء تقريبًا عنى وعن سؤالى الفضولى عنه ، ومنذ ذلك الحين رأيته يرمقنى فى اهتمام أكثر من مرة ..

أغرب شىء يتعلق بهذا الفتى ، هو صفيحة قمامته الموجودة بجوار باب شقته .. أنا لست فضوليًا بطبعى ، ولكن حين تجد صفيحة قمامة مليئة بتذاكر السفر المستعملة ، وكلها من وإلى الإسكندرية لابد أن تندهش ..

لقد سافر هذا الفتى عشرات المرات إلى الإسكندرية فى العام الماضى ، ولست أفهم لماذا لايستخرج اشتراك سفر بالقطار يوفر ماله أو يسافر بسيارته (الشيفروليت) الزرقاء ، التى لم أره يستعملها إلا مرتين ؟!

لقد أطلت عليك فى موضوع قد لايعنيك بالمرة .. فاغفر لى ثرثرتى ..

سلامى للجميع بلا استثناء .

أخوك : رفعت إسماعيل

* * *

الإسكندرية فى ٢٧ ديسمبر ١٩٦٤

عزيزى (رفعت) :

من قال إن هذا الموضوع لايعنينى ؟..

إن حاستى (الأمنية) تتحرك .. وقد نجحت فى إثارة فضولى بالفعل ، ويبدو أنك قد أردت ذلك دون مداراة ..

إن هذا الجار يخفى سرًا .. وهذا السر لايمكن أن يكون شيئاً مشروعًا ، لأننى أشتمّ هذه الأمور عن بعد .. وأراهنك على ذلك ..

حاذر من هذا الشاب ...

إن هناك أمورًا كثيرة لاأرتاح إليها فى قصتك ..

وإننى أرتاب !...

* * *

٢ ـ الزيـــارة ..

القاهرة فى ١ يناير ١٩٦٥

أخى العزيز (عادل) :

أكتب لك هذا الخطاب فى أول أيام العام ١٩٦٥ راجيًا من الله أن يجعله عامًا باسمًا عليك وعلى الأسرة .. وأن ينضم عميد شرطة إلى قائمة أصدقائى عما قريب!..

أنهيت خطابك السابق بكلمة تليق برجل شرطة مُحنك ، هى: إننى أرتاب .. ولعمرى لقد ذكرتنى هذه الكلمة بكلمة (أميل زولا) الخالدة: إننى أتهم !.. فى سلسلة مقالاته الشهيرة ، التى لابد أنك نسيت كل شىء عنها(*) !

تسلمت هذا الخطاب فى ليلة رأس السنة ..

كنت وحدى ـ كالعادة ـ أجلس فى فراشى وحولى عشرات المراجع الطبية ، وبجوارى المدفأة اللعينة ، وكوب الشاى إياه ، وفوقى عدد غير عادى من البطاطين .. لكنى كنت أرتجف!.. وكانت الدموع

(*) اتهمت السلطات الفرنسية أحد كبار الضباط بالخيانة فيما عرف باسم (قضية درايفوس) برغم عدم كفاية الأدلة ، من ثم جرّد الأديب الفرنسى (اميل زولا) قلمه وكتب مقالات ملتهبة تحت عنوان (إننى اتهم) ، وقد نجحت المقالات فى جعل الحكومة تعيد المحاكمة وتبرئ درايفوس.

تكاد تثب من عينى ؛ لأنه ما من إنسان يعبأ بى أو يقول لى كل عام وأنت بخير .. مجرد ليلة أخرى وعام آخر يُضاف إلى أعوامى الأربعين ..

فى الراديو يترنم (عبد الوهاب) بأغنية ما .. وثمة بطاقة من إدنبرة ، تحمل توقيع (ماجى) تتمنى لى عامًا سعيدًا ، وتقول إنها قد ... خُطبت !.. ، ولاألومها على شىء ، لأننى لم أكن فاعلًا أى شىء من أى نوع يبقيها لى .. إن الأمور قد سارت فى مجراها الطبيعى ، وكل شىء على ما هو متوقع ، ولكن ما سر هذه الغُصّة فى حلقى؟!!

(وعبد الوهاب) لم يزل يتغنى ..

وهنا دق جرس الباب ...

تململت .. وشعرت بالضيق ، لأن ترك الفراش فى هذا الزمهرير ـ وبعد أن صار دافئاً كحضن أمى ـ أمر غير إنسانى .. ، أطلقت سبّة وشرعت أنتظر الدقة التالية التى ستجعل فتح الباب أمرًا لامفر منه ..

ولكنها لم تأت ..

كانت الساعة الثانية عشرة والربع مساءً ، ولم يكن من المتوقع أن يدق أحد جرس الباب فى هذه الساعة إلا لأمر هام ..

أضف إلى هذا أن من يدق الجرس لأمر هام ، لابد أن يعاود الكرّة عدة مرات فى لهفة وفى جزع .. ولايبدى هذا الصبر المبالغ فيه ..

إن هذا التناقض قد أثار ريبتى ..

من ثم أزحت الأغطية ، وانتعلت شبشبى والروب ، واتجهت عبر الصالة المظلمة إلى الباب ، وفتحته بحذر بعد أن أضأت مصباح المدخل ..

كان السلم مظلما ، لكن نور المصباح نجح فى إزالة الظلمة إلى حد ما .. وعلى الضوء الخافت ، كان جارى الشاب واقفًا ، وقد ارتدى معطفًا أنيقا ، وبدت عليه علامات الحرج .. وكانت قطرات الماء تبلل شعره وكتفى معطفه وأنفه ..

ـ مساء الخير .. أرجو عدم المؤاخذة ..

قالها بصوت عميق فيه رجولة ورزانة ..

ـ مساء النور .

تنحنح كمن يجد الأمر صعبًا .. ثم همس :

ـ إننى قد عدت لتوى للبيت .. وكنت أوشك على تناول عشائى و .... ، أعنى هل أجد عندك بعض التوابل ؟! .. أنا أموت جوعًا ..

توابل ؟!!

توابل فى منتصف الليل ؟! .. لابد أن أحدنا مجنون ! .. لاأعتقد أن (ماجلان) الذى دار حول الكرة الأرضية من أجل التوابل ، كان يجرؤ ، على إيقاظ جاره فى هذه الساعة من أجلها ..

ماذا كنت تفعل لو كنت مكانى ؟! .. بالطبع كنت ستوجه إليه عبارات اللوم ، وتصفق الباب فى وجهه ، أو تحطم أسنانه ، أو تقتله دون مناقشة ..

لكنى لست كالآخرين .... ، وأنت تدرك أننى لاأستطيع حقيقة أن أغضب على أى شىء .. ثم إن أسلوبه المهذب ، جعل من المستحيل علىّ أن أطرده أو أزجره .. أضف إلى هذا أننى كنت لم أنم بعد ، ولقد قدم لى الحظ فرصة التعرف إليه على طبق من فضة .. فهل أرفضها ؟!

دعوته للدخول إلى أن أحضر طلبه ، فلم يكذب خبرًا ..

أجلسته فى غرفة الجلوس .. وكانت رائحة البلل والبرد تفوح من معطفه وشعره وكل شىء .. رفع عينًا حذرة إلى جدران الحجرة وسقفها ثم قال :

ـ بيتك يوحى بذوق رائع ..

شكرته على هذه المجاملة .. فقال وهو يعبث ببطارية نسيتها على المائدة :

ـ لابد أنها المدام .. صاحبة هذه اللمسات الساحرة ..

فافهمته الحقيقة ـ برغم أننى واثق بأنه يعرف ـ أننى غير متزوج ..

ـ إذن تعيش وحدك ؟!

كدت أرد بالإيجاب ، لكن الحافز الخفى المجهول ، الذى جعلنى أتخذ أغرب القرارات فى حياتى (وأحكمها) ذلك الحافز جعلنى أقول كاذبًا :

ـ هناك صديق يعيش معى .. وسيعود بعد قليل ..

ابتسم فى رزانة قائلا :

ـ آه من حياة العزاب هذه ... !

ابتسمت وتركته متجهاً نحو المطبخ ... وفتحت النملية الخشبية ، وشرعت أسكب فى أوراق صغيرة ممزقة من الجرائد ، بعض الفلفل وبعض الشطة وبعض البهارات ... الخ ...

ـ أنت تكره غسيل الصحون مثلى !!

وهنا أجفلت .. ! لقد كان واقفًا خلفى فى المطبخ ، يرمق الأطباق المكدسة فى الحوض ، والتى تعود لأسبوع مضى .. متى أتى؟ وكيف لم أسمع خطواته ؟! .. وأية وقاحة دفعته للسير بهذه الحرية فى بيت لا يعرفه ؟! .. كأن عزوبتى قد أعطته تصريحا غير مباشر بأن يتنقل فى دارى كما يشاء ..

هل أطرده ؟ .. الواقع أننى شعرت أن اللحظة المناسبة لذلك لم تأت بعد ، وأنه لم يرتكب حتى هذه اللحظة جريمة حقيقية أعاقبه عليها .. إنه يفتقر للياقة وهذا كل ما هنالك ...

لففت التوابل التى اخترتها له فى أوراق صغيرة .. ثم سألته :

ـ لم أعرف اسمك بعد ..

ـ اسمى (عزت) .. (عزت شريف) ..

ومد إبهامه فى إحدى الأوراق ، وأخرجه ملوثًا بالشطة ، ولعقه فى تلذذ :

ـ أنا ضابط بحرية تجارية .. وأعيش وحدى هنا ..

كانت ملامحه واضحة أمامى الآن كأفضل مايكون ، وقد بدا لى وسيمًا إلى حد ما ، لكن نظراته حادة بشكل مزعج .. ثم شفتاه الرفيعتان الصارمتان توحيان بقسوة غير عادية ، دعك من لون بشرته الذى هو خليط من اللونين الأسمر والأصفر .. والهالات الداكنة تحت عينيه .. ونحوله الشديد ..

كل هذا كان يذكرنى (بالمظهر الترابى) ، الذى يصف الأطباء به وجه مريض الفشل الكلوى المزمن ..

أما يداه فكانتا معروقتين شديدتى الخشونة ، مما جعلنى أندهش من أن يوجد إنسان عمله كتابى ـ وليس بدويًا ـ ويملك هاتين اليدين ..

على كل حال ـ أعترف ـ لم يكن وجوده مريحًا على الإطلاق ، وقد بدا لى أن الصداقة لن تجمع بيننا أبدًا .. وأننى أرغب فى الخلاص منه بسرعة ..

إلا أننى ـ على سبيل اللباقة ـ فتحت (النملية) وأخرجت منها قطعتين من الجاتوه ، كنت قد أبقيتهما على سبيل الاحتفال برأس السنة وحدى ، إلا أننى لم أعد أشعر بأية شهية تجاههما .. ، وضعت القطعتين فى طبق وقدمتهما إليه مع شوكة صغيرة متمتمًا :

ـ كل عام وأنت بخير .. هذا هو احتفالى الصغير برأس السنة ..

حاول الاعتذار إلا أننى ألححت عليه .. وبدا لى مُجبرًا أكثر مما يحتمله الأمر .. وهنا حدث شىء غريب ..

ما إن دس بقطعة الجاتوه الأولى فى فمه ، حتى بدت عليه أعتى علامات الاشمئزاز ، وتقلصت ملامح وجهه ، وأشار ـ فى تشنج ـ إلى فمه الملىء .. ففهمت .. ، قدته بسرعة إلى الحمام وهو يكتم بيده شفتيه .. وحشرجة محمومة تسبقه ..

وسمعته ـ خلف الباب ـ يتقيأ ..



ما إن دس بقطعة الجاتوه الأولى فى فمه ، حتى بدت عليه أعتى علامات الاشمئزاز ، وتقلصت ملامح وجهه ..

غريب هذا ..! لاأظن أن الجاتوه كان سيئاً إلى هذا الحد ، ولاأظنه فسد بهذه السرعة فى هذا البرد. تذوقت القطعة الباقية فى طبقة ، فوجدتها ممتازة .

وهنا عاد من الحمام يترنح ، وقد ازداد وجهه اصفرارًا .. وقال وقد لاحظ أننى تذوقت الجاتوه :

ـ معذرة .. معدتى .. إنها لاتحتمل الحلوى ..

ـ وكيف ستحتمل كل هذه التوابل إذن ؟!!

ـ هذا .. أعنى .. انعكاس شرطى .. اشمئزاز لاأكثر .. والآن أشكرك ، وآسف على الإزعاج ..

وكور قبضته على الأوراق الملفوفة على التوابل .. ثم سار مترنحًا إلى الباب الخارجى ، وأحنى رأسه محييًا وانصرف ..

يا لها من زيارة !!

على العموم لم أزل أعتقد أن له أعماقًا ما .. فكلمة (انعكاس شرطى) لاترد على ألسنة الناس العاديين ، مالم تكن لديهم خلفية واهية من علم الفسيولوجى ، أو علم النفس أو كليهما .. ، ثم إنه رزين ومتزن بلاشك ..

والآن .. هل مازلت تشك فى (كاره الحلوى) هذا ؟!

تحياتى واكتب لى سريعًا ...

أخوك : رفعت إسماعيل

* * *

الإسكندرية فى ٧ يناير ١٩٦٥

عزيزى (رفعت) :

سيصلك هذا الخطاب بعد رأس السنة بعشرة أيام على الأقل ، مبرهنًا مرة أخرى على أنك الأكثر مجاملة وودًا ورقة مشاعر .. أشكرك على البطاقة الرقيقة ، وعلى خطابك الطويل الذى كتبته على أربع ورقات (فلوسكاب) ، مما يشى بقدر من المودة أرجو أن يستمر طويلًا !

حكيت قصتك ، ثم سألتنى فى آخرها: هل مازلت تشك ؟!..

طبعًا أشك .. وقد ازداد شكى إلى حد غير عادى .. الواقع أن منطقك وسردك للأحداث ، يعكسان بلاهة قلما أصادفها ..

١ ـ تقول إنه زارك بعد منتصف الليل ، وتجوّل فى شقتك دون إذن ، ثم تصفه بأنه شاب مهذب رزين ...

٢ ـ يقول هو إنه جائع ، ثم يتقيأ بمجرد أن يضع قطعة جاتوه فى فمه ..

٣ ـ يقول هو إنه كان على وشك تناول عشائه ، وبرغم هذا ثيابه وشعره مبللان مما يوحى بأنه قد عاد لتوه من الشارع .. أنت ـ حين تعود لبيتك فى يوم ممطر ـ تخلع معطفك ، وتجفف شعرك .. ثم تدخل المطبخ ، وتبدأ فى البحث عن شىء تأكله ، وتجهز كل شىء .. ثم بعد نصف ساعة على الأقل ،

تكتشف أنه ليس لديك توابل ، وتفكر فى اقتراضها من الجيران ... وغالبًا لاتفعل ..

٤ ـ ثم مانوع المعدة التى تتحمل كل هذه التوابل قبل النوم ولاتتحمل قطعة جاتوه بريئة ؟!..

٥ ـ وما هو نوع العمل اليدوى ، الذى يجعل اليدين خشنتين فى مهنة الضابط البحرى ؟!..

٦ ـ ثم إنه قد فاتك شيء شديد الأهمية ، وعهدى بك أنك تلاحظ جيدًا .. كيف تقول إن ثيابه كانت مبللة ، فى حين أن السماء لم تمطر فى أية بقعة من مصر فى تلك الليلة .. ليلة ٣١ ديسمبر سنة ١٩٦٤ ؟!..

لقد قرأت النشرة الجوية بعناية ـ لأنها لم تمطر عندنا فى الإسكندرية يومها ـ بل سألت أخى المقيم بالقاهرة تليفونيًا .. فمن أين جاء هذا (الأخ) بالمطر ..؟!

ستقول لى أن منطقى يلتهم بعضه ، وأننى شككت ـ فى النقطة السادسة ـ فى إحدى الأساسيات التى بنيت عليها النقطة الثالثة !

حسن .. أنا لاأعبأ بهذا الهراء ، ولاوقت لدىّ من أجله ...

كل ماأريد أن أقوله لك هو .. خذ الحذر ولاتفرط فى الثقة بهؤلاء الأشخاص الودودين الذين يأتون ليلًا ..

إن عندى الكثير من القصص المأساوية ، التى تشابه

قصتك ، وكانت نهايتها دائمًا فى محكمة الجنايات ، أو منضدة الطبيب الشرعى !

أما بخصوص (ماجى) ...

فتقبل عزائى الحار على سلبيتك وترددك ، وعاطفتك التى جعلتك تفقد أول وآخر حب فى حياتك ، والآن حاول أن تنسى تلك الذكية العطوف المليئة بالحيوية ، وحاول أن تجد زوجة ! ، وعندى لك واحدة ليست ذكية ولاعطوفًا ولامليئة بالحيوية ، لكنها زوجة !!.. وهى أخت (سهام) زوجتى .. مدرسة فى التاسعة والعشرين من العمر ، خارجة من تجربة فاشلة لاذنب لها فيها ..

والمهم أن نراك فى الإسكندرية لنرتب لقاءكما معًا فى بيتى .. لاتندهش .. فهذه الزيجات التقليدية ، هى التى تنجح دائمًا .. ثم إنك لست أفضل منى .. وأنا تزوجت هكذا !

تحياتى وشكراً جزيلًا .

أخوك : عادل توفيق

* * *

القاهرة فى ١١ يناير ١٩٦٥

عزيزى (عادل) :

أكتب لك هذا الخطاب ، وأنا أشعر أن هناك أشياء غير عادية تحدث فى الشقة المجاورة ...!

٣ ـ المزيد من الألغــاز ..

(بقية خطاب د. رفعت) :

.... صباح اليوم كنت ذاهبًا إلى الجامعة كعادتى ، وركبت سيارتى ، وأدرت المحرك ، حين فوجئت بجارنا الأستاذ (زكريا) ـ أستاذ المواد الاجتماعية ـ يهرع ليلحق بى ، ثم ينحنى على نافذة السيارة ليلومنى ..

ـ على ماذا ؟

ـ على دق (الهاون) طيلة الليل ونحن نيام ...

نسيت أن أقول لك إن الأستاذ (زكريا) ، يقطن فى الطابق الواقع تحت ذلك الذى أسكنه .. ، وعلاقتى به شبه معدومة ، لأنه يعتقد أن رجلًا أعزب يعيش وحده ، هو ـ بلاجدال ـ وغد منحلّ يحسن عدم الاختلاط به !! وهو ينتظر ويتوقع ويثق تمامًا أننى سأجلب العار للعمارة يومًا ما ..

وهو يقين لاأرى مايبرره ، أنا الذى لم أشرب فى حياتى سوى السجائر ـ وأتمنى لو لم أفعل ـ ودخلت فى دائرة الكهول منذ عام ..

المهم أننى أخبرته أننى لم أفعل .. وليس لدى أى سبب يدفعنى لذلك ، وأن طعامى إما محفوظ ، وإما قادم من قريتى وإما فى مطعم قريب ..

قال فى ضيق وهو ينصرف :

ـ إذن هو الملعون الآخر ..!

يعنى بالطبع (عزت) ـ وهو ما أعتقده أنا ـ لكنى لم أفطن لحظتها إلى ما يعنيه بالملعون الأول ..!.. إنه أنا بطبيعة الحال ..!!

إذن فهذا الشاب يقضى الليل فى دق شىء ما على الأرض .. لاأعتقد أنه مولع بالطهى إلى هذا الحد المريع ، حين يطلب التوابل بعد منتصف الليل ، ويدق الهاون فى ساعات الفجر .. لكنى لم أسمعه بالطبع وإلا أخبرتك ..

قد أقول إنه غريب الأطوار وأكتفى بهذا التفسير السهل ..

لكن .. لا .. هناك سر أعمق من كل هذا وأخطر ..

أمس جاءنى البواب (عم شعبان) حاملًا قطعة من العظام .. وقال لى إن هناك من يرمى عظامًا فى مَنور العمارة ..

ولما كان منور العمارة مشتركًا مع العمارة الملاصقة لها ، فإننى لم أجد هذا دليلًا كافيًا يسوغ غضبه على سكان عمارتنا ..

وكان يريد منى تعهدًا بأن أكف عن رمى عظام اللحم من المنور ، إذا كنت أنا ذلك الهمجى الذى فعل ذلك .. قالها وهو يلوح بالعظمة فى وجهى ..

كانت العظمة عظمة كتف نظيفة وبيضاء .. ، وكان يمكن أن تنتهى القصة هكذا ، لولا أننى أتذكر علم التشريح جيدًا .. وأعرف تمامًا أن هذه العظمة لاتشبه عظام البقرة ، ولا الجاموس ، ولا الخراف ، ولا أى حيوان ثديى أعرفه سوى ......

وهكذا طلبت منه باقى العظام ونفحته ربع جنيه .. ، ولن أنسى أبدًا النظرة التى نظر إلى بها تقول بكل وضوح : هو ذا مجنون آخر ..! ثم إنه نزل فى السلم وعاد إلى بعد دقائق لاهثًا ، وهو يلف كل ما وجده من عظام فى جريدة قديمة ..

أخذت هذه العظام ، وحملتها لغرفة مكتبى ، وعلى ضوء الأباجورة شرعت أتفحصها ..

كانت هناك عظمة الكتف التى وصفتها .. ثم بعض العظام الصغيرة ، التى يبدو أنها من عظام الكف العديدة .. وكانت هناك فقرات .. وعظمتا ترقوة .. وبعض الأضلع .. ورأس عظمة فخذ مكسورة ..

وكان واضحًا أن العظام ليست كلها لنفس (الكائن) لأن أعمارها تفاوتت من حيث درجة تكلس الغضاريف والتحام الأطراف .... ألخ ....



وهكذا طلبت منه باقى العظام ونفحته ربع جنيه .. ، ولن أنسى أبدًا النظرة التى نظر إلى بها تقول بكل وضوح : هو ذا مجنون آخر ..

إنهم يستعملون فى الطب الشرعى أسلوبًا اسمه (الترسيب المناعى) ، لمعرفة العظام الآدمية من عظام الحيوانات .. وأنا لا أملك هذه الوسيلة ، لكنى أملك خبرة لابأس بها .. وأملك عينىّ ..

فلتقطع ذراعى إن لم تكن هذه العظام آدمية ..!

أشعلت سيجارة ، وشرعت أفكر وأنا أتأمل الدخان المتموج فى ضوء الأباجورة ..

إذا كانت العظام بشرية ، فما معنى ذلك ؟!..

أنا أعرف أن هناك طالب طب فى العمارة المجاورة لنا .. لكن ما الذى يدعوه لإلقاء العظام فى منور العمارة ؟!

إن الهياكل العظمية التى يدرس عليها طلبة الطب ، لاتلقى أبدًا فى القمامة ، ولكنهم يقرضونها أو يبيعونها عند الانتهاء منها ، وهكذا دواليك .. تنتقل العظام من يد ليد ، إلى أن تبلى تمامًا أو يدفنها أحدهم ..

إذن فهذا الاحتمال مرفوض ..

الاحتمال التالى ، هو أن أحدهم سقط فى المنور وتحللت جثته وهو احتمال مرفوض أيضاً ، لأن منور العمارة ليس مكانًا منسيًا إلى هذا الحد .. وبالتأكيد ليس كهفًا فى جنوب إفريقيا ، أو مقبرة فى وادى الملوك ...

الاحتمال الثالث هو أن هناك من قتل شخصًا ـ فى إحدى العمارتين ـ وألقى بعظامه من المنور ..

وهو احتمال سخيف ، لأن المنور ليس المكان الأمثل لإخفاء الجثث لنفس الأسباب السابقة ..

أضف إلى ذلك أن العظام مأخوذة من عدة أشخاص .. وأننى لم أجد عظمة واحدة كبيرة ـ كالفخذ أو الساعد ـ تدعم النظريتين الأخيرتين ..

أسمعك تقول: إن هناك احتمالاً رابعًا ، هو أننى لاأفقه شيئًا ، وأن العظام عظام حيوانية ببساطة .. وهو احتمال محترم ولابأس به إلا أنى لاأميل إليه كثيرًا ..!!

ترى ما هو رأيك فى هذا اللغز ؟!..

هل ترى أن أبلغ البوليس عن هذا ..؟.. لاشك أنه أقدر ـ بوسائله ـ على معرفة من ألقى بهذه العظام ، ولأى سبب ، ومن أين جاء بها ..

لقد صدعت رأسك ـ كالعادة ـ بهذا الخطاب ، وأعتقد أن الوقت قد حان لأن أنتهى .. انتظر منك خطابًا مطولاً ..

وعلى فكرة .. إننى على وشك تركيب تليفون يريحنى من كتابة الخطابات ويريحك من قراءتها .. ورقمه هو ١٠٨٢٧ ، فلا تنس أن تتصل بى بعد شهر لأسمع صوتك ، مادام سفرى للأسكندرية ، أو سفرك القاهرة متعذرًا فى الوقت الحالى . وشكرًا .

أخوك : رفعت إسماعيل

* * *

الأسكندرية فى ٢٠ يناير ١٩٦٥

أخى (رفعت) :

آسف على تأخرى فى كتابة الرد على خطابك ، لأنى كنت فى غاية الانشغال ..

لقد قرأت خطابك ، وقرأت أنك تود إبلاغ البوليس ..

حسن .. إنك تنسى دائمًا أننى أنا أيضاً بوليس ! ، وعليه أريد هذه العظام جميعًا .. وعليك أن تلفها لى فى ورقة مناسبة .. وسيحضر إليك خلال أيام الأخ منصور – وهو زميل فاضل – وستجده يرتدى ثيابًا مدنية ، ومعه ورقة منى ، فأعطه هذه العظام سيوصلها إلىّ ..

وبالطبع لاأريد ثرثرة مع أى إنسان حول هذا الموضوع ..

نقطة أخرى هامة جدًا ..

لاأريد أن أثير رعبك ، ولكننى قد تحققت بوسائلنا المعقدة من أطقم ضباط كل السفن البحرية التجارية ، المسجلة فى هيئة الملاحة ..والنتيجة سلبية ..

بمعنى أنه لايوجد ضابط بحرى اسمه (عزت شريف) على وجه الأرض ..

لايوجد ..

ولم يوجد ..

والآن ترى أن علامات الاستفهام قد ازدادت ، إلى حد يجعل أقدامنا مكبّلة .. وهناك خدمة أرجو أن تقدمها إلىّ ..

هل تستطيع إرسال شىء – أى شىء – ككوب ماء أو ملعقة عليها بصمات هذا الجار العجيب؟!.. إنه لم يفعل حتى اليوم شيئاً خطيرًا يبرر لنا طلب بصماته ، لكننى سأحاول البحث والتحقق ، مما إذا كان قد فعل شيئا فى الماضى ..

لهذا أرجو أن تساعدنى ، وتعطى هذا الشىء ملفوفًا فى منديل إلى الأخ (منصور) حين يأتيك بعد أيام ..

ألف مبروك على التليفون .. وأرجو أن ترد على اقتراحى بخصوص شقيقة زوجتى ، لأنك تجاهلت الأمر كليًا .

عادل توفيق

* * *

القاهرة فى ٢٥ يناير ١٩٦٥

أخى (عادل) :

اكتب هذا الخطاب فى الحادية عشرة مساء ، وقد انصرف (منصور) منذ دقائق حاملًا ما طلبته منى ..

بالأمس – وفى تمام العاشرة مساء – دق جرس الباب ففتحته لأجد (عزت) واقفًا على السلم .. حييته فطلب منى كوبًا من الماء لأن المياه مقطوعة عنده ، ولأن أحدهم – حتمًا – قد عبث فى عداد المياه الخاص به ..

المهم أننى تمالكت فرحتى ، وهرعت إلى المطبخ .. ونظفت كوب ماء بمنديلى بعناية شديدة ثم حملته على كفى فى حذر ، ووضعته فى طبق وحملته إليه ..

وكان قد دخل الشقة - كعهدى به - ، وأخذ يتأمل ديكورات الصالة .. ، ناولته الكوب بيد مرتجفة فشكرنى ، وشرع يحسو الماء بصوت مسموع ..

ثم إنه أعاد إلىّ الكوب شاكرًا ، فتناولته من قاعدته بأطراف أصابعى ، وبحركات بهلوانية - حتى لا أتلف البصمات الثمينة التى نقشها على الزجاج - وضعته فى الطبق وهنا لمحته ينظر إلى يدى فى شك .. ويسألنى :

- لماذا تمسك الكوب بهذه الطريقة ؟

كان السؤال مباغتًا .. وأرتج علىّ للحظة ، ثم تمالكت نفسى وقلت :

- إن يدىّ ملوثتان بالكيروسين .. كنت أصلح المدفأة ، ولا أحب أن تلتصق الرائحة بالكوب ..

- فهمت .. إنها حياة العزاب هذه ..

وعاد يتأمل فى الشقة ثقيلًا .. لزجًا .. كئيبًا .. ، ثم إنه حيّانى بهزة من رأسه وانصرف .. ولم تفتنى تلك النظرة التى ألقاها على الكوب قبل أن يخرج ..

والآن صارت لدىّ بصمات أصابعه كأوضح ما يكون ، وقد لففت الكوب فى منديل نظيف وأعطيته لـ (منصور) حين جاءنى اليوم ..

طبعًا أسمعك تقول الآن : إن (عزت) لم يبتلع ما قلته عن إصلاح الموقد ، لأن رائحة الكيروسين لا تفوح من يدى ، لكنى أقول لك : هل لديك حل آخر ؟.. كان هذا هو العذر الوحيد الذى استطعت إيجاده من وحى اللحظة ..

والآن أرجو أن تبلغنى النتيجة بمجرد أن تعرفها .. وألف شكر .

أخوك : رفعت إسماعيل

* * *

الأسكندرية فى ٢ فبراير ١٩٦٥

أخى (رفعت) :

كنت مشغولا بفحص العظام والبصمات ؛ لهذا لم أكتب إليك بالسرعة المرجوة ..

لقد أكد خبير الطب الشرعي ، أن العظام بشرية .. أما خبير البصمات فلم يجد أية سوابق معروفة ، لصاحب البصمات التى على الكوب ..

والغريب أنه يؤكد أن هذه البصمات ، واتجاه الخطوط بها من نمط غريب جدًا لم يره من قبل .. بالإضافة إلى أن جلد صاحب هذه اليد خشن ، إلى درجة لاتوصف ، مما يجعل بصماته غير ذات نفع تقريبًا ..

أما آخر ما قاله ، فهو أن هذه البصمات المشوهة ، موجودة بإفراط وبكثرة على العظام .. العظام التى أرسلتها ..!!

٤ - ســـوء تفـاهـم ..

ديترويت فى ١٥ يناير ١٩٦٥

بروفسير د. (محمد شاهين) .

زميلى العزيز :

مع بدايات العام الجديد ، أهنئك بمنصبك العلمى الجديد ، كأستاذ الأنثروبولوجى(*) بجامعة (.....) ، وأعتقد أنهم قد أحسنوا الاختيار فى هذه المرة على الأقل .

إننا نفتقر - بشدة - إلى وجودك العلمى الحميم بيننا .. وإلى حضورك وآرائك الصائبة .. ، وفى هذا الوقت بالذات ، أعتقد أن هناك حاجة ماسة إليك ، فى إحدى المشكلات العلمية المعقدة التى أتمنى دراستها معك .

تتذكر بالطبع مناقشاتنا القديمة عن مذهب الكانيبالزم - أو أكل لحوم البشر - ، وكيف أننى كنت أرى أنه طبيعة فى أى مجتمع بشرى بدائى ، فى حين كنت أنت ترى أنه لايشكل طبيعة إنسانية ، وإنما هو نتاج ظروف معقدة ومعتقدات أسطورية قديمة ، منها أن المجتمعات البدائية كانت حين تأكل البشر ، تعتقد بذلك أنها تكتسب مزاياهم ، وتمنع أرواحهم من ملاحقة أفرادها .. وكنت تستشهد

(*) علم السلوك الإنسانى .

بفقرات كاملة من كتاب (الغصن الذهبى) لـ (فريزر) الذى يتحدث عن حياة وعادات الإنسان البدائى .. ذلك الكتاب الذى لاأحترمه كثيرا للأسف ..

لقد جاءت الفرصة لإثبات أننا على حق ..

والآن دعنى أحك لك هذه القصة ، التى أخبرنى بها أحد تلاميذى المصريين ، وحدثت منذ سنوات خمس عندكم ..

المهندس (شاكر) شاب مهذب متحضر يعمل فى إحدى شركات البترول .. عمره ثلاثون عامًا .. غير متزوج ، وليس له أقارب معروفون ..

كل من عرفوه قالوا إنه متدين ونقى اللسان ، لايذم ولايشى ، وقد نال رضا رؤسائه ومرءوسيه بما لايقبل الشك ..

والآن تخيل معى ..

يذهب هذا المهندس فى مهمة علمية فى الصحراء الغربية .. جولة استكشافية بالطائرة ، لايرافقه فيها سوى اثنين من المهندسين والطيار ..

وبالطبع مع طائرة صغيرة بمحرك واحد كهذه ، تحدث الحوادث بكثرة ..

انقطع الاتصال ، ولم تفلح فرق الإنقاذ بعد أسبوعين من البحث ، فى العثور على أى أثر للضحايا الأربع .. برغم إرسال عدة طائرات لمسح المنطقة ..

وأعلنت الشركة أنها تعتبر مهندسيها والطيار مفقودين ..

هل تعرف هذه النوعية من القصص ؟...

ثم ـ بعد شهرين ـ يحدث ماتتوقعه .. يعود المهندس (شاكر) بعد أن وجده بعض البدو .. وكان فى صحة لابأس بها ؛ أما زملاؤه فهلكوا جميعًا ..

وكان واضحًا أنه ظلّ جوار حطام الطائرة ، ينتظر فى يأس أن يجده أحدهم ، واستطالت لحيته وأظفاره ، وتمزقت ثيابه تمامًا .. وقد لوحت الشمس بشرته حتى كادت تحرقها .. كما أن الرمد الصديدى كاد يلتهم عينيه ..

لكنه ـ وأكررها ـ كان فى صحة لابأس بها ..

سادت الفرحة أوساط زملائه .. ووسط هذا الهرج ، لم يلحظ أحد أنه لم يحك تفاصيل حياته فى منفاه الاجبارى هذا .. وهذا ينافى الطبيعة البشرية الثرثارة ، التى نعرفها .. إن واحدا مثله كان سيحكى قصته للجميع ..ولربما نشرها فى كتاب اسمه (ثلاثون يومًا فى طائرة) أو (سجين الصحراء) أو شىء من هذا القبيل ..!



وكان واضحًا أنه ظلّ جوار حطام الطائرة ، ينتظر فى يأس أن يجده أحدهم ..

لم يلحظ أحد هذا فى غمرة الفرحة .. كما أن أحدًا لم يسأل نفسه عن التغذية التى كان يحصل عليها ليحتفظ بهذه الصحة الجيدة .. ولم يسأل أحد نفسه عن عظام الطيار والثلاثة المهندسين ، التى وجدوها فى الطائرة نظيفة لامعة بشكل غير عادى ..

إلى هنا والقصة عادية ..

ثم بدأ المهندس (شاكر) يتغير .. صار أكثر شحوبًا ، واصفر لون وجهه .. شفتاه صارتا قاسيتين جافتين ، وبنيته صارت ناحلة ، ولم يعد يثرثر أو يمزح ، وقد عزا زملاؤه هذا التبدل ، إلى التجربة المريعة التى أحدثت شرخًا فى شخصيته يصعب التئامه ..

واستقال من عمله .. وترك منزله دون أن يودع جيرانه ..

والآن تعال معى نفكر فيما حدث ..

لايحتاج المرء إلى ذكاء كثير ، كى يعرف نوعية الطعام التى كان يحصل عليها فى الصحراء ، وبين جثث زملائه .. فهذه القصص تحدث كثيرًا ، منها قصة المكسيكى الذى سقطت به الطائرة فالتهم المضيفة .. والأندونيسى الذى افترس زملاءه فى طوف تتأرجح به الأمواج فى المحيط الهادى ..

إن الجوع وغريزة الحفاظ على الحياة شريكان لايجتمعان إلا على شرّ ..

والآن فأنا وأنت واثقان أن هذا المهندس قد أكل لحم البشر ..والسؤال هو : هل استطاع التخلص من هذه العادة ، التى حرّكت فى داخله ذلك التراث البدائى الهائل ، الذى غطت عليه الحضارة ؟!

لقد ترك بيئته كلها ، مما يعنى أنه يريد أن يذهب إلى مكان لايعرفه فيه أحد فما هو غرضه ؟.. ما هو نمط حياته اليوم ؟.. ما هى التغيرات النفسية التى طرأت عليه ؟!

أريد منك أيها الزميل أن تجد لى هذا المهندس ـ بأى ثمن ـ وأن تضعه تحت مجهرك لأنه نموذج حضارى غير عادى ..

وللمزيد من العلم ، أخبرك بأنه قد غيّر اسمه إلى (وحدت) أو (همت) أو شىء كهذا .. وهو يقيم فى أحد أحيائكم المسمى بالدقى ، وعنوانه هو ٤ شارع الترعة .. هذا هو العنوان الذى أعطانيه تلميذى المصرى ، الذى كان أقرب صديق لهذا المهندس ، إلا أن علاقتهما تهدمت فى ظروف مؤسفة ..

أرجو أن أتلقى ردك سريعًا .. وكن حذرًا ..

بإخلاص ....

بروفسور د ./ر . ل ..كاثريل

* * *

القاهرة فى ١٢ فبراير ١٩٦٥

عزيزى بروفسور (كاثريل) :

لقد أسعدنى الحظ بتلقى خطابك أيها الزميل الموقّر .. ياحارس بوابة العلم وكابوس الجهل الدائم !!

أكتب إليك هذا الخطاب لأزف إليك الخبر .. لقد وجدت صيدنا الثمين ..! ولم تكن مهمتى سهلة بحال ..

إنك قد قلت لى إن اسم صاحبنا هو (وحدت) أو (همت) وبمعنى آخر اسم من تلك الأسماء التى لحق بها التبديل (التركى) للتاء المربوطة بتاء مفتوحة وهى كثيرة فى لغتنا ومنها : ثروت ، عفت ، طلعت .... ألخ ...

بل إننا نستعمل اسم (مرفت) فى العربية غير عالمين أنه اسم (مروة) الذى خرّبه الأتراك(*) ، فاستبدلوا بتائه المربوطة تاء مفتوحة ، وبدلوا واوه إلى فاء ....و... دعك من هذا البحث اللغوى ، ونعود لموضوعنا ..

قلت لى إن اسمه (همت) أو (وحدت) .. و (همت) لايستعمل فى مصر إلا للفتيات أما (وحدت) فيستعمله الأتراك فقط ولانستعمله نحن المصريين أبدًا ..

(*) حقيقة .. إن (مرفت) هو النطق التركى لكلمة (مروة) العربية ..

لهذا سألت بواب العمارة - بعد إعطائه جنيها وسيجارة - عن صاحب الاسم الذى له هذا الرنين .... (ثروت) أو (طلعت) أو (رأفت) ...

قال إلى أن هناك رجلا مريبا فى الطابق الرابع اسمه (رفعت) .. (رفعت إسماعيل) !

وهو يعيش وحده وليس له أصدقاء .. ويمضى طيلة مابعد الظهر منفردا فى شقته .. وهو يزعم أنه أستاذ فى الطب ، لكنى لاأعرف له عيادة ولم أسمع عنه أبدا ، برغم أنه من نفس الجامعة التى تضم كليتى وكليته ..!!

الأكثر غرابة أن البواب قال لى ، إنه وجد منذ أيام عظاما بيضاء غريبة الشكل ملقاة فى المنور .. وأنه حين سأل (رفعت) هذا عما إذا كان قد رماها ، بدا مرتبكا مندهشا .. بل إنه - ضع عشرة خطوط تحت هذه الجملة - أعطاه ربع جنيه كى يحضر له هذه العظام إلى شقته ..!!

أما جاره - وهو مدرس ورب أسرة - فقال لى إنه يشك كثيرا فى هذا الرجل المريب .. وأنه لم ير له أهلا يزورونه ، وأنه يمارس عادة الدق ليلا فوق رأسه وهو نائم لسبب مجهول ، وأنه - كما يزعم - يسافر كثيرا للخارج ..

كما قالا لى - البواب والجار - إنه قبيح الشكل ومنظره مرعب ، وفى العقد الرابع من العمر تقريبا ، أى أنه فى نفس سن رجلنا ..

سأحاول التعرف عليه وزيارته .. لكن مهمتى لن تكون سهلة ..

إنك لاتزور آكل لحوم البشر كل يوم ..! ، ولن أتخذ أية خطوة قبل أن يصلنى ردك ..

المخلص د . محمد شاهين

* * *

ديترويت فى ٢ مارس ١٩٦٥

زميلى العزيز :

أعتقد أنك محق فى شكوكك .. ومعذرة عن خطئى فى الاسم ، لأن هذه الأسماء العربية - والتركية - تتشابه فى آذاننا الغربية ..

أريد منك قبل أن تزور هذا الرجل ، أن تأخذ احتياطاتك كأن تتسلح - ولو بمدية - وأن تترك عنوانك ومعلومات لدى أحد أصدقائك ، حتى إذا تأخرت أكثر من ثلاث ساعات عنه أبلغ الشرطة ..

أما نصائحي لك فهى كالتالى:

(أ) لا أعرف المدخل الذى ستستعمله للتقرب إليه وأعتقد أن الوحيد الذى يعرف هذا المدخل هو أنت ، لأنك مصرى مثله وتعرف ما يجب أن يُقال .. وما لا يقال ..

(ب) إذا دخلت بيته حاول أن تبحث عن (آثار ثقافية بدائية) .. لابد أنك واجد هذا الأثر ، لأنه موجود فى بيت كل آكل لحوم بشر تم اكتشافه ..

(جـ) حاول أن تتبين نوع طعامه ، وأن تجلب أى أثر منه لكى تفحصه ..

(د) لاحظ طريقة كلامه .. فإن لم يخنى حدسى ، ستجد لديه عيبًا ما فى الحروف ، وهى سمة عامة فى أكلة لحوم البشر ؛ لأن أسنانهم تتشوه تدريجيًا من جراء معالجتهم للأنسجة القاسية .. مما يؤدى لتغير أسلوبهم فى النطق ..

مرة أخرى .... كن حذرًا .

بإخلاص .

بروفسور د . ر . ل . كاثريل

٥ ـ المتطفـــل ..

القاهرة فى ١٧ مارس ١٩٦٥

عزيزى (عادل) :

لقد جاء التليفون لشقتى أمس .. لكن الحرارة لم تصله بعد ..

كان يومًا عاصفًا يحاصرنى فيه النحس من كل اتجاه .. لقد جرحت ذقنى فى أثناء الحلاقة .. وشربت قهوتى ساخنة مما جعل لسانى يحترق ، ولم أعد أستطيع الكلام ..

ثم ـ الطامة الكبرى ـ كسرت مفتاح الدولاب فى القفل ، مما جعلنى أكسر الباب نفسه كى أجد قميصًا نظيفًا ، وقد قررت أن أرتب محتويات الدولاب بما فيه من تذكارات لن أنساها أبدًا ..

مخالب المذءوب التى كانت (إيكاترينا) تلبسها .. وزجاجة حمض مكسورة باقية من رحلتى المشئومة إلى اسكتلندا ، لاتعرف أنت قصتها .. وتماثيل سحرة قبائل الزولو ، التى أهداها إلىّ د. (أمجولو) فى نيجيريا منذ سنوات .. وقد وجدت أنها جميلة جدًا وتستحق أن أضعها فى الصالة ..

ثم إننى ارتديت مريولة المطبخ ، وطهوت بعض البازلاء والأرز مع فخذ ضأن شهى ، اشتريته اليوم من جزار أمين ، وأعددت مائدة الطعام وكل شيء . وجلست - ولعابى يسيل - أفترس هذه الوجبة ، أنا الذى نسيت تقريبا طعم الأكل المنزلى ، خاصة وأننى لاأطبخ إلا مرتين فى الشهر ..

أشعر دائما بالحسرة وتبديد الجهد ، من أجل الساعات التى أطهو فيها ، ثم .. ينتهى كل شيء فى دقائق ، كل هذه المشقة من أجل عشر دقائق من الاستمتاع .. لاأعتقد أن لهذا داعيا كبيرا .. ولاأحسب أن معدتى تستحق كل هذا التكريم المبالغ فيه ..

وهنا دق جرس الباب ..

ذهبت لأفتحه فى غيظ ، وأنا أمضغ ملعقة الأرز التى ابتلعتها .. إن الباب - ذلك الملعون - لايجلب لى سوى أشخاص يريدون نقودا ، أو يلوموننى على شيء ، أو يزفون إلىّ مصيبة ، أو يقترضون شيئا لن يعيدوه !

فتحت الباب ، فوجدت رجلا قميئا أصلع ، يرتدى ميكروسكوبا - معذرة أعنى نظارة سميكة - وحلة حال لونها ..

ابتسم لى فى لزوجة وقال :

- د . (رفعت إسماعيل) ؟!

- ماذا تريد ؟

قلتها فى ضيق .. فقال وهو يرمقنى بفضول :

- أنا الدكتور (محمد شاهين) ، أستاذ الانثروبيولوجى بجامعة (....) .. هل تسمح لى بالدخول ..؟!

دعوته إلى الصالة ، وأجلسته على مقعد وثير هناك ، فغاص فيه وأخذ يختلس نظرات وقحة إلى أثاث الصالة وأركانها .. ثم تحجرت عيناه وهو ينظر إلى .. تماثيل الزولو التى وضعتها على (البوفيه) كما قلت لك .. نظرة انتصار وحشية التمعت فى عينيه .. ثم إنه نظر إلىّ وقال :

- هذه تماثيل لقبائل الزولو .. وهى توضح الطقوس القديمة للكانيبالزم ..!!

هززت رأسى بمعنى أننى لاأدرى فى الواقع .. فقال :

- إن مهنتى تجعلنى على دراية بهذه الأشياء ..

قلت له - بلسان معوج من أثر القهوة - إننى أفضل أن يشرح لى سر تشريفه بزيارتى ، لأننى كنت أتناول طعامى منذ دقائق ..

قال على الفور - ملحًا فى الرجاء - إنه يصرّ ويصمم على أن أواصل طعامى أمامه ، بينما يتكلم هو عن غرض زيارته ..

- إذن تأكل معى ؟

ابتلع ريقه وبدا لى أنه يوشك أن يغمى عليه ، واعتذر بأنه قد تناول طعامه بالفعل قبل أن يجيء إلى ، كما يريد ..

وهكذا جلست على مائدة الطعام وأخرجت فخذ الضأن شهية المنظر إلى طبقى ، وبدأت أقطعها بالشوكة والسكين ، أمام نظراته المرعوبة الخرساء ، التى لا أدرى لها سببًا .. وكان يرتجف وهو منكمش فى مقعده ..

ثم أمسكت بالعظمة ، وشرعت أخبطها على حافة الطبق ، لأفرغها من النخاع - كعادتى منذ الطفولة - لاعقًا لسانى من التلذذ ، وهنا سمعته يتحشرج ، ورأيته يغطى فمه بيده ، ويشير إشارة فهمتها فورًا ..

- آه .. الحمام !.. هلم سريعًا .. من هنا !..

جرى إلى هناك ، وأغلقت عليه الباب ، وعلى صوت قيئه تساءلت فى اشمئزاز ، عن السبب الذى يجعل كل هؤلاء يتقيئون عندى ؟!.. لا أعتقد أن شكلى (مقرف) إلى هذا الحد المروع ..

وحين عاد إلى كان قد صار أحسن حالًا .. وقد اعتذر لى فى حرارة لأنه فعلها :

- معذرة .. إنه ..

- انعكاس شرطى .. أعرف هذا ..

قال وهو يلهث :

- نعم .. هو كذلك ..



وهكذا جلست على مائدة الطعام ، وأخرجت فخذ الضأن شهية المنظر إلى طبقى ، وبدأت أقطعها بالشوكة والسكين ، أمام نظراته المرعوبة الخرساء ..

ثم بدأ يحكى لى قصة سخيفة لاأول لها ولاآخر ، عن ابن عم له سقطت به طائرة فى الصحراء الغربية ، وإنه يبحث عنه منذ سنوات ، وإنهم قالوا له إنه فى هذه العمارة .. وإنه يعتقد أننى أعرف شيئا عن هذا الموضوع و ....

قلت له إننى لاأملك أية فكرة عن ابن عمه المفقود ، إلا أنه أخذ يتحدث فى إلحاح عن القبائل البدائية والكانيبالزم وحضارة الزولو و ..و ....

طلبت منه الانصراف ، إلا أنه استمسك ببسالة بتصديع رأسى ..

ولما أدرك ألا جدوى من الإلحاح ، طلب منى – فى أدب – أن أعطيه العظمة التى كنت آكل منها لغرض ما عنده !!

ألن أنتهى من هؤلاء المجانين طيلة حياتى ؟!

قلت له وقد فقدت كل تحكم في جهازى العصبى :

– حسن .. تريد هذه العظمة لغرض صنع حساء طيبًا ؟!..

ورفعت العظمة فى قبضتى كأنها هراوة ، واتجهت نحوه ببطء راسمًا أعتى علامات الشرّ على وجهى .. فاصفرّ وجهه واخضرّ ، ووثب كالفأر من كرسيه ، وتراجع نحو الباب وهو يرتجف مرددًا :

– إنك لن تستطيع إيذائى !.. لن تضربنى بهذه العظمة !.. إن (رمزى) يعرف أين أنا .. لقد أخبرته ..!

– ومن هو (رمزى) ..؟

– إنه جارى .. هو يعرف ، و (البدرى) يعرف ، وزوجتى تعرف .. كل المدينة تعرف ..!.. إنك لن تجرؤ على ....

– إذن لنر ذلك !!

قلتها وأنا أفتح باب الشقة ، وأرمى به خارجه كأنه كيس قمامة ، وصفقت الباب خلفه ، وأنا أسمعه (يبرطم) ويهدد ويتوعد .. ، كان يصرخ :

– الأيام بيننا أيها الجزار ..!! ياكانيبال ..!!

وهكذا انتهى ذلك اليوم الكئيب ..

والآن لم تعد لدى سوى الأخبار المعتادة لأحدثك عنها ..

لم تحدث أشياء مريبة بعد خطابى الأخير ، سوى المزيد من الدق فوق شقة الأستاذ زكريا .. والمزيد من تذاكر السفر الغامضة ، من وإلى الأسكندرية ..

ولاشىء آخر ..

ذكرت فى خطابك الأخير أن (عزت) هو صاحب البصمات الموجودة على العظام ، فما الذى يعنيه لك؟ ومارأيك أنت ؟!..

لا اعتقد أنه يقتل الناس فى شقته ، ويلقى بهم فى المنور .. فهذا تخريج مبالغ فيه ..

اكتب لى بالتفصيل .

أخوك : رفعت

* * *

الأسكندرية فى ٢٤ مارس ١٩٦٥

أخى (رفعت) :

ضحكت كثيرًا وأنا أقرأ قصتك ، عن ذلك العالم المخبول فى شقتك .. إن هذه الأشياء لاتحدث إلا لك !..

ولو لم تقل لى إنه ناداك بالاسم ، لظننت أنه كان يبحث عن شخص آخر مثل جارك غريب الأطوار هذا .. ، وهو أيضًا يهتم بالعظام مثله ..

وإننى لأتساءل ..

على كل حال لم يعد أمامك مفرّ .. لقد رتبت كل شىء لاقامتك عندى فى الأسكندرية أسبوعًا أو أسبوعين ، لأننى - بصراحة - لم أعد مطمئنًا لإقامتك وحدك وسط كل علامات الاستفهام التى تعرفها .. كما أننى لست مستريحًا لسلامة أعصابك ، ولارجاحة عقلك بعد كل هذا ..

أول ماستفعله ، هو أن تأخذ من كلية الطب إجازة طويلة .. وسيكون يوم لقائنا فى ٥ أبريل القادم ، وقد

أعطيتك مواعيدى ، بحيث لن تجد أية فرصة للتراجع ، أو ترديد الاعتذار .

المخلص : عادل

* * *

القاهرة فى ١٧ مارس ١٩٦٥

عزيزى بروفسور (كاثريل) :

لقد زرته .. ولاشك لدىّ أنه رجلنا ..!

قلت لى أن أبحث عن لهجة غريبة ، وكان يتحدث من جانب فمه بشكل غريب جدًا .. كأن لسانه محترق !

قلت لى أن أبحث عن مظاهر ثقافة بدائية .. وكانت عنده تماثيل (زولو) تمثل طقوس أكل البشر .. وكان فخورًا بها ..

وقلت لى أن أراقب طعامه .. وكان يأكل فخذ طفل مع الأرز والبازلاء !!

وحين حاصرته بأسئلتى المدروسة ، تحول إلى شيطان يلتهب الشر فى عينيه .. ووثب علىّ ملوحًا بعظمة الطفل ، يريد تهشيم رأسى ، لكننى نجحت فى الفرار بأعجوبة ..

إننى أرتجف حين أفكر فى كل ماحدث ..!

والآن ماذا سنفعل مع أكل البشر هذا ؟!..

هل نبلغ الشرطة ، أم أن لديك هدفًا علميًا أكثر شمولية ، مما لا يصل إليه علمى المتواضع ؟!

المخلص : د . محمد شاهين

* * *

ديترويت فى ٤ مايو ١٩٦٠

بروفسور د.(شاهين) .

أيها الزميل :

بالطبع لدى هدف أكثر شمولية .. لقد استطعت إثبات نظريتى القائلة ، إن (الكانيبالزم) طبيعة فى النفس البشرية ، وإن تذوق لحم البشر ، قد دمر قرونا من التراث الحضارى فى نفس هذا الرجل .. وهو الآن ـ كالبدائيين ـ لايجد متعة ولالذة فى أى لحم ، مالم يكن لحما بشريًا وإننى لأعتقد أن لديكم مشكلة حقيقية فى القاهرة ..

لكنى أملك خطة لابأس بها ، لإيقاف هذا الوحش دون أن ندمره ، أو نحرم أنفسنا من دراسته كنموذج فريد ..

وسأقول لك كيف ..

* * *

٦ ـ عروس البحر ..

الأسكندرية فى ٦ ابريل ١٩٦٥

أخى العزيز (رضا) :

قليلة جدًا هى المرات التى كتبت لك فيها خطابًا ، ربما لأنك كنت دائمًا قريبًا من روحى ، والخطابات تعنى بُعد الشخص الذى نكتب إليه ..

كيف حالك يا أخى ؟.. أيها القريب البعيد ..!

وكيف حال أمى وأختى وزوجتك وأولادك ؟.. كيف حال (طلعت) زوج أختى ؟!.. وماذا عن الأرض ومشاكلها ؟!..

لم أر أى واحد منكم منذ عودتى من أسكتلندا ، ولمدة تسعة شهور كاملة ، فهل أنا لاأعنى شيئًا لديكم إلى هذه الدرجة ؟!

وصلت ـ بالأمس فقط ـ إلى الأسكندرية لأمضى بعض الأيام ، على سبيل (تغيير الجو) عند صديق لاأملك رفض طلبه .. وهو العقيد (عادل توفيق) بمديريّة أمن الأسكندرية .. هل تذكره ؟

المهم أنها كانت لحظات لاتنسى ، حين خرجنا إلى الكورنيش نتنزه .. والأسكندرية فى فصل الشتاء لها سحر خاص ، لايفهمه سوى أمثالى ممن لايحبون الزحام ..

هواء البحر أضواء المطاعم والكازينوهات.. سحر الماضى لم يزل حيًا ، وقد لحقت به أناقة الحاضر.. أى جمال!.. وأية عذوبة!

وكنت قد أحضرت هدية بسيطة لـ (أشرف) ابنه مما أعطى انطباعا جميلا عند زوجته (سهام) ، التى رحبت بى فى حماسة شديدة.. وقد أولمت لى وليمة رائعة جعلتنى أنسى أيام (الجوع) إياها!!

وفى المساء جلسنا عنده فى الصالة ، نشاهد جهاز التليفزيون ـ وهو اختراع رائع حقاً ـ حين وجدته يطلب منى أن أرتدى ثيابا أنيقة ، لأن زائراً هامًا سيأتى بعد قليل..

نفذت طلبه وارتديت بذلتى الزرقاء.. الغريب فى الأمر أننى وجدته يرمقنى فى اهتمام ، وزوجته تتفحصنى من رأسى لأخمص قدمى ، فى حين وقفت مرتبكا كالأبله... سأل زوجته وهو يشعل سيجارة:

ـ ما رأيك؟

ـ ربطة العنق غير ملائمة.. يبدو لى كالمتشردين..

ـ أرى ذلك بالفعل..

ثم إنه دخل غرفة النوم ، وعاد لى بربطة عنق أكثر أناقة ، وطلب منى أن أرتديها..

ـ لماذا؟..

ـ افعل ما أقول..

فعلت ما طلبه منى وأنا لا أفهم ، فى حين شرعت زوجته تنفض بالفرشاة آثار غبار على كتف الحلة ، ثم تراجعت للوراء لتأخذ فكرة عن مظهرى العام ، كأنها فنان يضع آخر لمساته على لوحة رسمها.. وقالت:

ـ لابأس.. الآن ارفع رأسك ولاتطرق بها كالمتسولين..

ـ حسن..

ما هذا الذى يفعلانه؟!.. و ... جرس الباب يدق..

هرعت (سهام) إلى الباب ، وفتحته ، وسمعت صوت قبلات وعبارات مازحة ، ثم إذا بفتاة ما تدخل من الباب وتنحنى لتقبل (أشرف) الصغير الذى أخذ يتواثب كالقرد صارخا:

ـ طانط (هويدا)!.. طانط (هويدا)!..

اكتسب صوت (عادل) نبرة معسولة وهو يقدمنى للفتاة ويقدمها لى:

ـ د. (رفعت إسماعيل).. آنسة (هويدا عبد المنعم).. أخت زوجتى...!

أخت زوجتك !.. وأنا الذى تركتكما تعداننى لهذا اللقاء ، كأنى فتاة يعدونها للقربان فى معبد وثنى !.. يالكما من لعينين !!..

وهكذا جلست ـ كالمساجين ـ مكتئبا فى ركن الغرفة ، فى حين جلست الفتاة مطرقة للأرض محتقنة الوجه ، تداعب الطفل وتهمس له وتجلسه على ساقيها .. أنا أعرف هذا النوع من الحنان الذى يجدن إظهاره ـ أو التظاهر به ـ مدعيات أنهن ينسين كل شيء عن العالم حين يرين طفلاً !

وكان (عادل) يتحدث فى حرارة .. (وسهام) تمتدحنى ، وتمتدح أختها بطريقة مبتذلة جدًا ، فهى بالتأكيد لاتعرف عنى سوى مايحكيه (عادل) لها ، وبالتأكيد ليس شيئًا مشجعًا إلى هذا الحد ..!

كنت أشعر أننى معروض فى سوق للعبيد .. ولاأدرى لماذا خُيل إلى أن الفتاة تشعر بشعور مماثل !..

هل هى تعرف ..؟ .. هذا مؤكد ..

المهم أن جلسة العذاب هذه قد طالت ، وأعتقد أننى أفهم مايحسه الجالس فوق الكرسى الكهربائى بالضبط !!

كانت الساعة قد بلغت العاشرة مساءً ، حين نهضت الفتاة للانصراف ، لأنها تأخرت .. وصافحتنا .. وصافحتنى .. وللمرة الأولى ترفع عينيها تجاهى ..

قال (عادل) دون كياسة :

ـ للأسف سيارتى معطلة ، فلن أستطيع أن أوصلك يا (هويدا) ..

قلت له فى دهشة :

ـ ولكنك أخذتنى بها إلى (ستانلى) منذ ساعتين ؟

غمز بعينيه الاثنتين مرارًا وسحق قدمى بحذائه ، مما جعلنى أفهم أخيرًا ..فقلت لها :

ـ سأوصلك أنا يا (هناء) ..

ـ (هويدا) .. اسمها (هويدا) ..

وسارعت (سهام) إلى إيصالنا للخارج ، وهى تكاد تنفجر سعادة لمشهد لقاء (القلبين الجريحين) ـ أو ماتظنه هى ـ ووقفت تودعنا على (بسطة) السلم ، كأنها تزفنا إلى بيت الزوجية .. لقد اطمأنت علينا أخيرًا ..!

وبعد نصف ساعة عدت للبيت ..

قابلنى (عادل) فى لهفة .. وأجلسنى فى الصالة .. وسألنى :

ـ مارأيك ؟

ـ فى ماذا ؟

ـ يالك من أبله !.. (هويدا) طبعًا ..

قلت له فى صدق :

ـ لا أدرى ..

ـ ألم تتكلما فى السيارة ؟!

ـ ولا كلمة .. ظللنا صامتين كالأسماك حتى بيتها ..

أخذ يسب ويلعن حماقتى وجهلى وقلة ذوقى ، ويقول إننى أحرجته بعد كل ما فعل من أجلى ، وأنه وزوجته منحانى كل ما يبغيه رجل ناضج عاقل يريد أن يتزوج .. ثم إنه انتزع منى ربطة العنق الأنيقة .. فقلت له :

ـ اسمع يا (عادل) .. الأزرق لون جميل .. والأخضر لون جميل ، لكنهما لاينسجمان أبدا ، هكذا أنا وأخت زوجتك ..

ـ بل ينسجمان يا أحمق ! .. عندى (بول أوفر) يجمع اللونين ..

ـ إذن فهو قبيح جدًا .. !

ـ ثم من قال إنك أزرق ؟ .. أنت (أحمر) من أى شيء رأيته فى حياتى !

والآن ستقول لى إنها لم ترق لك .. فما أدراك أنك أنت الذى لم يرق لها .. ؟

قلت وأنا أفك ياقة قميصى :

ـ أنا لم أزعم شيئا ، ولم أطلب أن أضع نفسى ـ أو غيرى ـ فى أى اختبار ..

إننى ـ أقسم لك ـ غير قادر على التعرف عليها بين أربع فتيات فى عمرها .. ولا أعرف إن كانت جميلة أم قبيحة ..

هز إصبعه فى وجهى محذرا :

ـ سأكف أنا و (سهام) عن البحث عن مصلحتك ..

ـ هذا ما أتمناه .. !

وهنا دق جرس الهاتف ، فرفع السماعة وشرع ينصت ويزوم ، مصدرا عبارات قصيرة مؤداها أنه لم يتوقع ذلك ، وأنه مندهش ، وأنه آت على الفور .. ثم وضع السماعة وتصلب لحظة مفكرا فى محتوى المكالمة التى تلقاها .. لقد نسى ـ لحسن الحظ ـ كل شيء عن تزويجى ..

ـ حادث ؟! ..

ـ بل مصيبة .. !

ثم ارتدى جاكت حلته .. ونهض داعيا إياى أن أتبعه ، لأن هناك ما يود أن يريه لى ، ثم قذف لى بربطة العنق ، داعيا إياى أن أعيد ربطها .. وقال لزوجته إننا خارجان وقد نتأخر ..

ركبنا سيارته ومضينا عبر شوارع الأسكندرية ، التى قد بدأت تخلو من المارة فى هذه الساعة .. ، وكان المطر قد بدأ ينهمر على الطرقات ، وعلى زجاج السيارة التى

تشق مصابيحها طريقا فى الظلام .. وبدأنا ندخل شوارع أضيق وأقل نظافة .. وبدأت حركة السيارة تغدو أقل حرية ..

لاأعرف الاسكندرية جيدا ، لكننى أعتقد أننا فى مكان ما بالمنشية ..

وكان هو صامتا كالقبر .. ويدخن بشراهة ، مما زاد إحساسى بخطورة مانحن مقبلان عليه ..

وعند ناصية الشارع رأيت مشهدا غريبا ..

كأنه مشهد من فيلم سينمائى ملون ..

سيارة الإسعاف واقفة ، ومصباحها الفوقى يدور مرسلا أضواءه ككرات نارية تحلق حول رءوس الواقفين .. وقطرات المطر تنهمر فوق الرءوس غير المبالية .. ثلاث سيارات شرطة واقفة ، وبجوار واحدة منها يقف أحد الضباط ، ممسكا بميكروفون جهاز لاسلكى يحدث جهة ما ..

فى حين اصطف رجال الشرطة يسدون الطريق بأجسادهم ..

وكانت هناك أضواء فلاش ، وعشرات الأشخاص الذين لاأعرف عملهم ..

نزل (عادل) من السيارة ، وفرد صدره واخترق صف الجنود الذين أصابهم ذعر شديد عندما رأوه ، وأخذوا يؤدون التحية العسكرية فى ارتباك ..

لقد تبدل (عادل) فى ثوان .. تحول الى شخصية قيادية رهيبة ، صارم الوجه حاد الملامح .. وقد نسى وجودى تماما .. لم أصدق لحظة أن هذا الرجل المرعب هو صديقى العتيد ، والرجل الذى كنت أمازحه من نصف ساعة !

تبعته إلى قلب هذا الزحام ، فرأيت شيئا مغطى بملاءة عليها بقع دماء طازجة ! وسمعت شابًا متأنقا يقف بجواره يقول وهو يشير إليها :

ـ الساعة التاسعة تقريبًا ياسيدى .. نفس الظروف ..

نفس الظروف ؟.. ماذا يعنى ؟..

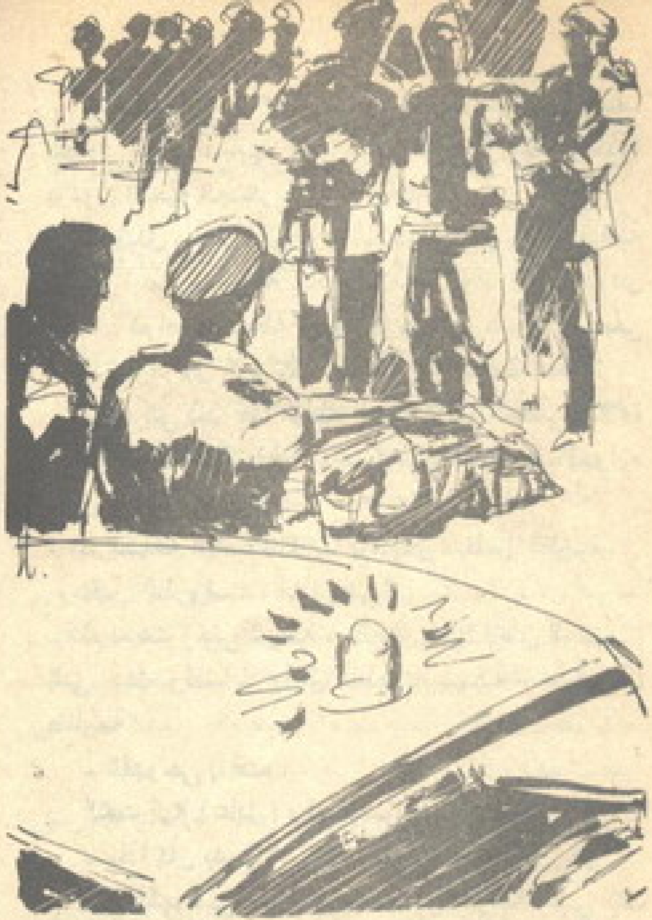
ثم لمحت رجلى شرطة ، يقتادان رجلا بائس المظهر ، إلى حيث وقفنا .. وقال أحدهما بلهجة (عسكرية) صارمة :

ـ القهوجى يافندم ..

التفت إليه (عادل) وفى خشونة سأله :

ـ ماذا كان يلبس ؟.. أجب ..!

قال القهوجى وهو يرتجف (ولاألومه على ذلك لحظة) :



ثم عبرت رجل شرطة ، يقتادان رجلًا بالس المظهر ، إلى حيث وقفنا ..

ـ كان .. كان نحيلًا يا (باشا) ، ولونه أصفر غريب جدًا .. وكان يلبس حُلّة سوداء ومعه حقيبة .. و .. وشرب شايًا ثقيلًا ثم دفع الحساب .. و .. واختفى في الحارة .. وكان هناك جرح على خده ..

أشعل (عادل) سيجارة أخرى وقال دون أن ينظر لأحد :

ـ بصمات ؟! ..

ارتفع صوت لم أر صاحبه يقول :

كالعادة يا فندم .. كان يرتدى قفازًا ..

هم م م م !

ثم أصدر بعض التعليمات لرجال المعمل الجنائي ، وشق طريقه بين صفوف رجال الشرطة خارجًا ، وأنا أهرع خلفه كالدجاجة المذعورة .. وفي عصبية فتح باب سيارته ، ومدّ يده إلى زر تأمين الباب ليفتحه لي ..

قلت وأنا أسترخى في المقعد بجواره :

ـ حتى (عادل) (باشا) لايطمئن على سيارته .. وسط كل هذا الحزام الأمني ، لاينسى أن يؤمّن الباب .. !

لم يعلّق ولم يضحك ..

أدار المساحات لتزيل قطرات الماء المنحدرة فوق زجاج النافذة ، وأدار الكونتاكت .. وانطلقت السيارة في شوارع المدينة المبتلة ..

كان شارد الذهن تماما ، مما دفعنى لاحترام صمته .. بعد لحظات .. قال لى وعيناه على الطريق المظلم :

ـ إن ما رأيناه الآن هو الحلقة الخامسة ، من سلسلة جرائم قتل غريبة ، كنت قد لمحت لك بها من قبل ..

فى كل مرة يحدث نفس الشىء ..

يجد أحدهم ـ فى زقاق مظلم أو حارة منسية ـ جثة متسول أو عابر سبيل ممزقة تماما .. أطراف مبتورة .. وشرائح كبيرة من اللحم مفقودة ، كأن هناك من قام بانتزاعها فى صبر .. نفس مايفعله الجزار مع ذبائحه المعلقة ..

قلت فى هلع :

ـ ما أبشع هذا ..!

ـ ودائما نفس القصة عن رجل نحيل ، لون بشرته غريب ، يحمل حقيبة يشاهده أحدهم ينتظر فى مكان الحادث قبلها ، ويفر منه بعدها ..

مرة واحدة قال الشهود إنه يركب سيارة زرقاء ، لكن أحدا لم يره بعدها يركبها ..

ـ وهل له علاقة ما بالضحايا ؟

قال وهو يشعل سيجارته العاشرة فى هذا الوقت القصير :

ـ يصعب أن تتخيل علاقة تربط بين هؤلاء المتسكعين فهم مثلا لم يطلعوا على وثائق إحدى عصابات المافيا ، أو يسرقوا الميكروفيلم من عملاء المخابرات السوفيتية إذا كان هذا ماتعنيه ..

ـ وهل هناك نظام زمنى أو نوعى يحدد الجرائم ؟

ـ آه .. ! .. أنت تتحدث عن أمثال (لص الثلاثاء) أو (سفاح الشقراوات) أو شىء من هذا القبيل ..

للأسف .. إن هناك دائما نظاما عقليًا محددا ، يعمل على أساسه أى سفاح يحترم نفسه .. إلا هذا الوغد .. إنه يقتل أى شخص فى أى يوم ، فى أى مكان ، وفى أية ساعة من النهار ..! .. العشوائية هى أساس عمله المقيت ، وهو مايجعل أية خطة لعمل كمين له غير ذات موضوع ..

ـ ولكن ما جدوى التعتيم الإعلامى الذى تمارسونه ..؟

ـ إن نشر هذا الذى قلته لك سيحدث هلعا عامًا فى الإسكندرية .. ولن يستفيد منه ضحاياه المقبلون ؛ لأنهم إما متسولون أو متشردون .. أى أنهم بعيدون تماما عن مدى التأثير الإعلامى فى الصحف والراديو .. ولن يتعلموا شيئا ..

هل تعرف السبب الذى جعلنى أحكى لك هذه القصة يا (رفعت) ؟

قلت فى غباء :

ـ الصداقة طبعا ..

انفجر يضحك .. ضحكة قاسية واثقة .. ثم قال :

ـ لاصداقة فى العمل ياطبيبى العزيز .. ألم تفهم بعد مغزى ماسمعت ومارأيت ؟!

إنك أنت من سيقودنى إلى هذا السفاح ..!

والآن يا (رضا) أرى أننى أطلت عليك فى وصف حدث لايهمك .. ولو أنك أردت استخلاص شىء من كل ما قلته فى خطابى الطويل هذا ـ سبع صفحات ـ فإنك تستطيع أن تطمئن أمى علىّ ، وتقول لها إننى رأيت عروسا لابأس بها لكننى متردد ..!

هذا هو كل شىء ..!!

أما لماذا حكيت لك ما حكيت ، فهو لأننى كدت أنفجر .. وكنت بحاجة لأن أسرد ما رأيت لأى شخص ..

أما ما قاله لى (عادل) بعد ذلك ، فهو سر لاأستطيع أن أبوح به حتى لك !

تمنَ لى حظا سعيدا واكتب لى على عنوانى بمصر إذا وجدت وقتا .

شكرا وإلى اللقاء .

أخوك : رفعت

* * *

٧ ـ هذا هو السرّ !

إلى هنا تنتهى سلسلة الخطابات التى ما زالت عندى عن هذه القصة ، وكما لاحظ القارئ فهى تنقسم إلى قسمين .. خطابات متبادلة بينى وبين (عادل) (وقد أرسل إلىّ (عادل) الخطابات التى كتبتها له لأضمها للمجموعة) ، وخطابات بين البروفسور (كاثرين) ونظيره المصرى د. (محمد شاهين) ؛ وقد استطعت الحصول عليها فيما بعد .. ثم خطاب واحد لأخى (رضا) لم أرسله قط ..

والآن لم يعد هناك مناص من العودة للأسلوب التقليدى فى السرد ، والاعتماد مرة أخرى على ذاكرتى فى استرجاع الأحداث ..

* * *

لابد أن القارئ قد فهم محادثتى مع (عادل) ، إنه يملك نظرية معينة عن سفاح الأسكندرية .. تلك النظرية التى يرى أن لى دورًا ما فى إثباتها ..

تعالوا معى إلى حيث توقفنا ..

أنا وهو جالسان فى سيارته فى الظلام ، وقطرات المطر لم تزل تنهمر على زجاج النافذة ، وشوارع الأسكندرية خالية تمامًا من المارة ...

هذا هو الجزء الذى انتهى عنده خطابى لـ (رضا) أليس كذلك ..؟!

فلنستمر إذن ..

قلت لـ (عادل) فى دهشة :

ـ وكيف أقودك إلى السفاح ؟.. إننى لاأعرف سوى طريقة واحدة هى أن أكون أنا هو !

أخذ يضحك فى ظلام العربة ، وأنوار مصابيح الطرقات تلتمع على عينيه .. وقال :

ـ اسمع ... سنتعشى أولا فى البيت ، ثم أشرح لك ..

* * *

وبعد أن رفعت (سهام) ـ التى بدت على غير مايرام تجاهى ـ صحون الطعام من على المائدة .. ونام (أشرف) الصغير فى مقعده ، طلب منها (عادل) أن تأخذ الطفل لفراشه ، وأن تتركنا على انفراد ..

ملت نحوه هامسًا :

ـ هل أخبرتها بموضوع (هويدا) ؟.. يبدو أنها تكرهنى بالفعل ..

ـ أى أحمق كان يستطيع أن يرى أنك لم تعر الفتاة اهتمامًا ..

ثم قشر برتقالة بالسكين ووضعها فى طبقى قائلا :

ـ إنها شقيقتها برغم كل شىء ..

ثم أشعل سيجارة وشرع يشرح لى :

ـ الآن نعود لموضوعنا ..

كنت أحدثك عن هذه الجرائم الغامضة التى تجتاح الأسكندرية ، والتى لم نستطع أن نتقدم نحو مرتكبيها خطوة واحدة ..

كنت فى ذلك الوضع حين جاءنى خطابك الأول ..

إن هذا الخطاب قد قدم لى الحل على طبق من ذهب ..

أنت تعيش بجوار جار غامض نحيل ، ولون بشرته غريب .. إن هذا الوصف ليس غريبًا على مسامعنا .. لقد سمعناه اليوم من القهوجى ، هل تذكر ..؟!

ثم ماذا ؟.. سيارته زرقاء .. ويسافر للأسكندرية مرارًا .. لاحظ هذا ..

جار يأكل التوابل فى منتصف الليل .. ويدق شيئًا ما فى ساعات الفجر الأولى ، ولايتحمل طعم الجاتوه ..

جار يلقى بعظام آدمية فى منور العمارة ..

جار يزعم أنه ضابط بحرى وهو كاذب ..

جار يبدو كالمصابين بالفشل الكلوى ، ويداه خشنتان ، وبصماته مشوهة ..

أعتقد أنك تفهم الآن ما أعنيه ..

قلت فى ذهول :

ـ هل تعتقد ..؟

ـ نعم أعتقد .. لست متأكدا لهذا أعتقد .. فقط أعتقد ..

والآن تخيل معى ذلك الشاب المريض بمرض لايمكن وصفه ، يسافر عدة مرات إلى الأسكندرية ، وينتظر فى الأزقة المظلمة حتى يمر متسكع ما ، ثم ينقض عليه ويصرعه ..

وبعناية ينتزع قطعا من لحمه وما يمكن اقتطاعه من أطرافه ، ويدسها فى كيس بلاستيك ثم يعود إلى القاهرة ..

وهنا يبدأ الحفل الحقيقى ..

فى الليل يبدأ التقطيع والطهى ، وإضافة التوابل ، والدق بالهاون فوق الجيران .. وإلقاء العظام المتبقية من المنور ..

إن معدة قد اعتادت أكل اللحم البشرى ، لايمكن أن تستسيغ طعم الجاتوه .. وهكذا يمكننا فهم عدم فتح باب الشقة ليلا مهما كان الطارق ..

ويمكننا فهم خروجه الليلى الغامض ، للتخلص من البقايا التى لاتؤكل ..

ويمكننا فهم ملامحه المرعبة .. ملامح آكل البشر ، ويداه الخشنتان هما بالتأكيد نتيجة العمل اليدوى العنيف ، الذى يمارسه بالساطور طيلة الليل !!

تقلصت معدتى وأنا أحاول ابتلاع هذه القصة ..

وهمست ..

ـ يا للهول !!

ثم تمالكت روعى وقلت :

ـ والتذاكر ؟.. لماذا لايسافر بسيارته أو باشتراك قطار ..؟

ابتلع (عادل) فص البرتقال الذى يمسك به وقال :

ـ إنه ذكى .. وهو يعرف أن السيارة ستكون علامة مميزة يسهل اقتفاء أثرها ، ولن يعدم شخصا يلتقط أرقامها ويخبرنا بها ..

أما الاشتراك فهو يتوقع ـ فى ظروف ما ـ أننا سنبحث عن الذين يسافرون للأسكندرية بانتظام ، وهو حذر مبالغ فيه لأن هناك المئات غيره يفعلون ذلك ..

اما التذاكر فهو يحتفظ بها حتى تتكدس .. ثم يلقيها فى القمامة غير متوقع أن جارا فضوليًا مثلك ، يحب أن يعبث فى صناديق قمامة الجيران ...

ـ والعظام .. لماذا لايلقيها بعيدا ؟!..

تنهد (عادل) فى استسلام .. وقال :

ـ هذا هو موضع الضعف فى نظريتى .. لماذا لايلقيها بعيدا عن دائرة الشكوك ؟

على كل حال يصعب معرفة الدوافع النفسية المعقدة ، التى تحرك أكل لحوم البشر ..

فقد يدقق فى لحظة ويهمل فى لحظة .. لا أدرى ..

على كل حال هى مجرد نظرية ينقصها الإثبات الحقيقى ..

تفكرت حينًا فى اشمئزاز وتقزز .. لقد كنت بمفردى مع هذا الوحش ليلا ! بل لقد تمنيت صداقته يومًا ما !.. والآن ها هو ذا الرعب الذى تركته فى انجلترا ورومانيا واسكتلندا وكفر بدر ، يسبقنى اليوم إلى شقتى الهادئة !!

سألت (عادل) وأنا أنظر لنجفة السقف :

- وهل أخبركم أن (عزت) سافر للأسكندرية اليوم ؟

- من هو الذى أخبرنا ؟

- بائع (البطاطا) فى شارعنا ..! إنه رجلكم طبعا !

نظر إلى فى دهشة ، وشبح ابتسامة خبيثة يتلاعب على شفتيه :

- ما هذا الكلام الفارغ ؟!

قلت له فى برود :

- ليس كلامًا فارغًا .. إن بائع (بطاطا) يظهر فى شارعنا الراقى - ولاول مرة منذ عشرين سنة - لايعنى سوى أنه شرطى سرى لم تجيدوا إخفاءه !!

اخذ يضحك .. وقال من بين أسنانه :

- حقًا أنت ذكى .. وأرجو ألا يكون (عزت) بهذا الذكاء ..!

- منذ متى ..؟

منذ متى نراقبه ؟.. منذ ١٩ يناير الماضى .. أى ما يقرب من ثلاثة شهور .. منذ حدثتنى عن العظام ، ووجدت بصمة الرجل عليها ..

وليس بائع البطاطا هو الوحيد ، بل إن هناك حوالى عشرة من رجال الشرطة السرية ، أرسلتهم مديرية الأمن عندكم ، بناء على اجتماع عالى المستوى ، درسنا فيه خطاباتك وشكوكى الخاصة ..

- والنتيجة ؟..

- سلبية ..إما أننا مخطئون ، وإما أنه لاحظ رجالنا مثلما لاحظتهم أنت .. إنه قد كف عن السفر والخروج ليلًا .. أضف إلى ذلك حماقتك فى أخذ بصماته على الكوب ، مما أشعره أن شيئا ما يُدبّر له ..

- وهل سافر إلى الأسكندرية هذه الليلة ؟.. وهل سيعود إلى العمارة حاملًا كيساً مليئا بأشياء معينة ؟

- لم نعرف بعد .. لم يقدّم الرجال هناك تقاريرهم ؛ لهذا أنتظر بجوار الهاتف ..

- ولماذا لاتداهمون شقته هذه الليلة ، وتضبطون ما تجدونه لديه ؟

- أنت لاتفهم القانون ..

ونهض يمشى فى الغرفة مطرقًا برأسه :

- إن هذا السفاح مواطن .. وله حقوق ، ولايمكن أن نداهم شقته دون إذن من النيابة التى يجب أن تجد أسبابنا مقنعة ، وهذا ما لاأتوقعه .. ثم استدار إلىّ هاتفًا :

شىءآخر جدير بذكره ..

هذا الأستاذ الجليل الذى زارك فى شقتك .. (محمد شاهين) ..

- ما شأنه هذا المتطفل ..؟

- لقد عرفنا بوسائلنا أنه قد سأل البواب عن ساكن للعمارة اسمه (ثروت) أو (طلعت) أو شىء من هذا القبيل ..

وقد تطوع البواب وهو لايحبك كثيرًا - بذكر اسمك .. وقال إنك مريب وغريب الأطوار ..و ..و.. ، وتطوع الجيران بالمزيد من الاتهامات لك .. إن سكان عمارتك يمقتونك بشكل يجعلنى أسائل نفسى ..!

وهكذا قام الرجل بزيارتك ، تلك الزيارة التى وصفتها لى فى خطابك بتاريخ ١٧ مارس ..

تأمل معى ما حدث ..

الرجل يبدو مذعورًا بلا سبب .. حذرًا بلا مبرر ..

إنه يرمق طعامك ويريد عينة منه ، ويتأمل تماثيل أكلة البشر فى اهتمام ..

ويغمى عليه تقريبًا وهو يشاهدك تأكل اللحم ..

إن الرجل يتصرف كأنه يعرف أنه فى شقة آكل لحوم بشر ..

صحت فى ذهول وقد بدا لى كل ما فعله الرجل منطقيًا :

- الآن فهمت ..!.. ولهذا أخبر كل من يعرفه بأنه آت لزيارتى ..!

- ثم إذا أنت تأملت الموقف لفهمت .. كان يبحث عن (ثروت) أو (رأفت) ، فقال له البواب إن اسمك (رفعت) .. ، الواقع أنه كان يبحث عن (عزت) !

وكلاهما - رفعت وعزت - غريب الأطوار ومعقد ويعيش بمفرده !!

وهذا يعنى أن الأستاذ (محمد شاهين) ، يبحث مثلنا عن نفس الشىء ونفس الشخص ..

إن يمسك بالطرف الآخر من الخيط الذى نمسكه نحن .. وفى وسط الخيط يتدلّى (عزت) ..

لهذا يجب أن نعرف ما يعرفه هذا الأستاذ ..

كنت جالسًا صامتًا ومهمومًا ، مما جعل (عادل) يسألنى عما بى .. فقلت :

- إنهم جيرانى الأشقياء .. وأنا الذى كنت معهم فى غاية الأدب والتهذيب ..

أرأيت ما يظنون بى ؟!.. أنا آكل لحوم بشر ؟!

- إن المصريين لايحبون المنطوى ، ولايستريحون له بشكل عام .. إنهم يفهمون أن تكون وقحا ، أو أن تكون صاخبًا ، أما أن تكون منطويًا مهذبًا غامضا ، فهم يظنون بك الظنون ..!

استرخيت فى مقعدى .. وتنهدت قائلا :

- والآن .. هل بحثتم عن (محمد شاهين) هذا ؟!

- المعلومات التى لدينا تقول إنه أستاذ فاضل .. رجل لاغبار عليه سوى طيبته الشديدة التى تصل لحد السذاجة .. لكننا لم نسأله بعد عن مصدر معلوماته ..

أما عن (عزت) ، فلانعرف أى شىء عنه .. أقاربه .. عمله الحالى أو السابق .. لاشىء سوى ذهابه للتسوّق ، وللبنك حيث يسحب من حساب لانعرف مصدره ، وقيمته ثمانية آلاف جنيه ، ولانعرف وجهته الليلية كما قلت آنفا .. والآن ..

وهنا دق جرس الهاتف ، فوثب قلبى إلى فمى ، وأجفل (عادل) .. ثم تمالك نفسه والتقط السماعة .. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل :

- هم م م م !..أضاعوه ؟.. الحمقى !.. ضللهم ؟!.. هم م م م !.. الواحدة صباحا ؟!.. نعم .. نعم !.. ثم ماذا ؟.. آه ..!.. آه !.. علاء قال هذا .. أنت متأكد ..!.. حسن .. حسن .. ألف شكر ..

ووضع السماعة فى تؤدة ثم رفع رأسه .. وكانت علامات السرور مرتسمة عليه ..

- هل تعرف ما حدث ؟

- أعتقد أنه قد نجح فى تضليل رجالكم فى أثناء خروجه من منزله .. وهكذا لم يتأكدوا من سفره للإسكندرية .. ولكن علاء - وهو طبعا أحد مخبريكم - قد وجد دليلا واضحا ضده فى الواحدة صباحا ..

صاح فى غيظ :

- إذا لم تكف عن تظاهرك المستمر بالذكاء .. فلن أحكى لك شيئا !!

- حسن .. حسن .. لن أستنتج شيئا .. ولكن قل لى ..

- يقولون إنهم فقدوا أثره عند نزوله من البيت ..

- لقد قلت أنا ذلك !

- إلا أنهم شاهدوا عودته - فى الواحدة صباحا - وكان يحمل حقيبة كبيرة ثقيلة .. وبالطبع يرتدى ثيابا سوداء ..أما أهم شىء فهو أنه .. ونظر لوجهى فى رزانة مردفا :

- كان يضع قطعة بلاستر على خده ..!!

٨ ـ مغـامرة صـغيرة ..

عندما انتهت إجازتى صافحنى (عادل) وعانقنى .. كما أن (سهام) صافحتنى فى نوع من الفتور .. وحتى ذلك الشيطان الصغير (أشرف) اشرأبّ بثغرة نحو خدى .. فانحنيت عليه كى يستطيع أن يلثمه ..

قال (عادل):

ـ والآن تذكر ما قلته لك .. وحافظ على نفسك .

ثم قادنى للباب وهناك همس لى:

ـ و .... فكر مرة أخرى فى موضوع (هويدا) .. أنت بحاجة لزوجة ترعاك ، وهى بحاجة لزوج يحميها .. ثم إنها ليست سيئة أبدًا ..

وعلى درجات السلم أخذ يكرّر على مسمعى ما اتفقنا عليه ..

ـ لابد أن تليفونك يعمل الآن .. فاتصل بى بانتظام .. ولا تخش شيئا .. رجالنا يلاحظون كل صغيرة وكبيرة ، وتكفى إشارة واحدة لأى منهم كى يمزّقوه إربًا ..

* * *

كان هذا هو اليوم الثامن من أبريل ..

إن أجازتى لم تتجاوز فى الأسكندرية الجميلة أكثر من ثلاثة أيام .. لكننى ما زلت أملك الفرصة للعودة هناك ، بعد أن ينتهى هذا الكابوس .. وفى حجرتى جلست أستمع للراديو ، وأتسلى بالرسم على (بلوك نوت) قديم وجدته .. عبثًا حاولت ، لكن أى وجه رسمته كان هو وجه (ماجى) الحبيب !..

لقد تسلطت حتى على أصابعى وعلى قلمى ..

كيف يحيا كل هؤلاء الرجال سعداء وراضين ، فى حين لم يتزوج (ماجى) سوى واحد فقط !!

الساعة الآن الثانية عشرة مساءً ..

لقد حان الوقت ..

رفعت صوت الراديو ليعرف من يتصنت علىّ ، أننى فى الشقة ..

ثم ارتديت ثيابى وحذائى الكاوتشوك إياه ، والبطارية والمسدس المرخّص .. ولعل القارئ يذكر أن آخر مرة ارتديت فيها هذه الثياب ، كان للقاء النداهة فى تلك الليلة الرهيبة فى قريتى كفر بدر ..

ثم وقفت خلف الباب أتصنت ، حتى سمعت صوت الرتاج يُفتح من الشقة المجاورة ، وصوت الخطوات المألوفة تنزل السلم .. أطفأت نور غرفتى كى لايرى

خيالى ، وخرجت للشرفة .. فلمحته يسير ـ دون أحمال ـ فى الظلام .. وحين وصل لنهاية الشارع ، ورأيت خيالًا يتحرك ويبدأ السير وراءه حثيثًا ..

إن المخبر السهران يؤدى عمله جيدًا ..

لقد كان (عادل) مصيبًا حين توقع أن (عزت) سيعود لرحلاته الليلية الغامضة ، بعد الجريمة الأخيرة ؛ لأنه لابد من أن يتخلص من الفضلات المتبقية فى البيت .. لكنى لاأفهم السبب الذى يجعله لايحمل شيئًا فى يده ..

والآن حان وقتى أنا ..

فتحت باب شقتى وبحذر مشيت إلى باب (عزت) ..

مددت يدى إلى جيبى ، وأخرجت مفتاح (الماستركى) الذى أعطاه لى (عادل) ، ويصلح لفتح كل أنواع الأقفال ..

مددت يدى للقفل ، وببطء وحذر أولجت المفتاح فيه ، وأدرته و .... تك ! انفتح القفل دون مصاعب ..

والآن هل أدخل ؟! .. لقد قال لى (عادل) أن أبلغ الشرطة السرية ، فى الليلة التى أدخل فيها شقة (عزت) ، حتى يراقبوا لى مدخل العمارة خشية أن يعود فجأة ..

لكنى وجدت فى ذلك حذرًا مبالغًا فيه .. لن يستغرق الأمر سوى خمس دقائق ، بعدها ينتهى كل شىء ، ثم إن الهدف من قيامى أنا بهذه المغامرة ، هو العمل على عدم

إقحام رجال الشرطة فى شىء مما قد يمكن محاميا بارعا من هدم القضية كلها أمام المحكمة يوما ما ..

وهكذا دخلت .. ولم أوقد المصابيح طبعا ..

أطلقت شعاع البطارية فى الشقة يمسح الجدران فى هدوء .. وكانت هناك رائحة عضوية ماتملأ الجو وتشعرنى بالغثيان ..

وفى الصالة لمحت الشىء الذى كان يبحث عنه الأستاذ (شاهين) فى شقتى أنا .. مجموعة تماثيل أفريقية موضوعة على مائدة تتوسط المكان ..

وكانت هناك عدة لوحات تجريدية شاذة على الجدران ..

بدأت أتفقد الغرف وقلبى يرتجف .. وكانت غرفة نومه مهملة تسودها الفوضى ، وبجوار الفراش بعض الكتب والمجلات ، وعلى الجدار ـ فى إطار قديم ـ كانت صورة لاحدى الفتيات ، وبجوار الصورة كان هناك إطار آخر ، يحوى قصاصة جريدة ، بها خبر عن سقوط طائرة شركة بترول فى الصحراء الغربية ..

ولم أفهم معنى عذه القصاصة وقتها ..

أما الذى أثار اهتمامى ، فكان مكتب فى ركن الحجرة ، عليه عظام بشرية من أجزاء مختلفة ، وكلها مصقولة بيضاء ! .. جمجمة .. ضلوع .. عظام فخذ .. عظام ساعد ..



وكانت غرفة نومه مُهملة تسودها الفوضى ، وبجوار الفراش بعض الكتب والمجلات ، وعلى الجدار ـ فى إطار قديم ـ كانت صورة لإحدى الفتيات ..

فقرات .. وكان هناك سلك و (بنسة) ، مما يوحى أن هناك محاولة ما للحام بعض القطع ببعضها الآخر ، كما كنا نصنع فى كلية الطب فى شبابنا ..

هل هذا يكفى ؟.. كلا .. لقد أبقيت الغاية للنهاية .. لابد لى أن أرى المطبخ ، وأن أفتح الثلاجة ..!!

دخلت المطبخ .. وكان مهملًا قذرًا ككل غرف البيت .. وكان الحوض مليئًا بالأطباق مثلما قال لى بالضبط ..

وعلى رخامة المطبخ ، كانت هناك سكين كبيرة .. ثم .. ثم أياد بشرية طرية ، اكتسبت لون الموت القاتم !.. لقد وجدت ما كنا نبحث عنه ..

تغلبت على اشمئزازى ، وفتحت الثلاجة .. كانت الرفوف مليئة بأجزاء بشرية متنوعة بكامل لحمها ..! ، لم أجرؤ على أن ألمس شيئًا ولاأن أدع شيئًا يلمسنى برغم أنى طبيب .. إن رعب الموقف قد أذاب أى منطق علمى لدىّ ..

يجب أن أفر ..

يجب أن أعود لشقتى الآمنة ، وأغلق الباب بالرتاج ..

يجب أن أخبر (عادل) بكل شىء ..

وهنا سمعت الباب الخارجى يفتح بالمفتاح ..!

لقد عاد الرجل ..!

تصلبت فى مكانى ، وقد تلاشى تفكيرى تمامًا .. فقط أطفأت البطارية .. جريت إلى باب الحمام وفتحته ، ودخلت وأغلقته خلفى .. كان الظلام دامسًا بالداخل ، إلا أننى حين اعتادت عيناى الإضاءة ، استطعت تمييز أشياء شنيعة لا أعرف كنهها تملأ حوض البانيو ..!

وسمعت صوته يمشى فى الصالة .

ثم سمعته يفتح عدة أبواب ، وكأنه يفتش عن دخيل ما ..!

اقتربت الخطوات من باب الحمام ، فتجمدت خلف الستارة ..

وسمعته يهتف بصوت عال كأنه يحدث شخصًا ما يعرف أنه موجود :

ـ اخرج من مكمنك !.. أنا أعرف أنك هنا .. لقد لمحت ضوء بطاريتك من الشارع ..!!

يالى من أحمق !.. حين دخلت الشقة دون أن أخبر أحدًا .. وأحمق حين فاتنى أن أرخى الستائر على النوافذ الزجاجية قبل أن أضىء بطاريتى ..

والآن لم يعد هناك مفرّ ..

إنها معركتى التى ستحدد كل شىء ..

أخرجت منديلى وربطته حول أنفى على شكل لثام ، لكى لايتعرف علىّ إذا ما تصادف ونجا كلانا من الصراع القادم ..

وفى لحظة وثبت نحوه كالمسعور وقد زادنى الخوف شراسة ..

بمجمع قبضتى هويت على مؤخرة عنقه ، ثم وجهت ركلة لأسفل بطنه حين استدار ـ وقبل أن يفهم شيئًا ـ ثم لكمته بكل ما أملك من قوة فى أنفه ..

وانطلقت أجرى . فى حين تهاوى هو كالبالون المثقوب من خلفى ..

ظلام الصالة .. التماثيل الأفريقية .. الباب .. الرتاج .. الطرقة ..

ثم شقتى ..!

لاأدرى كم من الوقت قضيته راقدًا على الفراش مذهولا ، لاأدرى من أنا وأين أنا .. قلبى يتواثب كالحصان فى صدرى .. قلب لم تعد شرايينه تمده بحاجته من الأكسجين .. الدوار .. الظلام ..

وحين أفقت .. نهضت مترنحًا إلى التليفون ..

وطلبت رقمًا فى الأسكندرية ..

* * *

صباح اليوم التالى ، كنت جالسًا فى الكلية مع طلبتى فى غرفة الدراسة ، أشرح لهم ـ وأنا لم أزل منهكًا ـ أعراض الأنيميا الخبيثة ، حين دق أحدهم الباب فى رزانة دقات متتابعة ..

استعددت كى أوبخ ذلك الطالب المتأخر بكلمات صارمة ثقيلة الوطء ، ثم أدعه يدخل .. حين انفتح الباب بحذر كاشفًا عن رأس أصلع يرتدى نظارة سميكة مضحكة !، ونظرة ذهول بلهاء ارتسمت على وجه الأستاذ (محمد شاهين) ، وهو يرانى وسط طلبتى ..

ـ أنت ؟!..

ـ وأنت؟!..

ـ لم .. لم أصدق ذلك حتى رأيت بعينى ..!

ـ حسن .. تعال واجلس حتى أنهى محاضرتى ثم نتكلم .. هناك كلمة اعتذار من حقى أن أقولها لك !

ـ وأنا كذلك !..

وهكذا جلس مع الطلبة يتابع محاضرتى ، وأنا أكاد أسمع الأفكار التى تتضارب فى ذهنه ..

وبعد انصراف الطلبة ، جلس إلى جوارى وفتح فمه ليتكلم ، إلا أنى قاطعته :

ـ لست أنا آكل لحوم البشر الذى تبحث عنه !.. هذا هو كل شىء .. إن رجلك هو (عزت) وليس (رفعت) ، وإنى لأعتذر ..

ـ لقد .. لقد سألت عنك فقالوا إنك هنا .. كنت واثقًا أن من يتحدثون عنه هو (رفعت إسماعيل) آخر ..

وشرعنا نتبادل الإيضاحات ، التى جعلت كل جوانب القصة مضيئة كالشمس .. واعتذر لى عن وقاحته وفضوله ، واعتذرت له عن إلقائه ككيس القمامة خارج شقتى ..

وحكى لى قصة المهندس (شاكر) ، وحكيت له ما يمكننى حكايته ـ دون أن أفشى أسرارًا هامة ـ من قصة (عزت شريف) ..

وحين افترقنا ـ على وعد بالاتصال الدائم ـ كنا قد صرنا أصدقاء ..

★ ★ ★

كانت خطة (عادل) تقترب من نهايتها ..

وبرغم لومه لى فى التليفون على حماقتى ، فإننى كنت ـ وكذلك هو ـ مطمئنًا إلى أن حادثة الأمس لم تؤد إلى نتائج لايمكن إصلاحها .. وأن (عزت) سيظن أن لصًا محترفًا زار الشقة لغرض ما .. وهو قطعًا لن يجرؤ على إبلاغ البوليس ، حتى يتجنب معاينة شقته ..

هكذا ظننا ..

وكنت ـ كالعادة ـ ساذجًا ..!

★ ★ ★

٩ ـ المواجهـــة ..

فى الخامسة عصرًا كنت قد انتهيت من غذائى حين دق جرس الباب .. كنت لم أدفع إيجار الشهر بعد ؛ ولذا توقعت أنه البواب .. ذهبت لغرفة النوم ، وأخذت ثلاثة جنيهات من جيب جاكت الحُلّه ، ثم اتجهت إلى الباب وفتحته ..

كان طارق الباب هو (عزت) ..!!

كان يقف على الباب فى رزانة ، وابتسامة ما تتلاعب على شفتيه .. وأنفه متورم من جراء لكمة الأمس ، وقد دسّ فى فتحتيه قطعتين من الشـاش ، وكانت يداه فى جيبه .. لم يكن منفرًا إلى هذا الحد ، لكنى كنت أخشاه كثيرًا ..

لم أتوقع أبدًا أن يزورنى عصرًا ..

ـ هل تسمح لى بالدخول ؟!

لم أدر ما أقول .. إننى لم أرفض دخوله قط ، فلاداعى لإثارة ريبته فى هذه الظروف بالذات ، أشرت برأسى له أن ادخل .. فدخل فى تؤدة وهو يرمقنى بنظرة حادة ثابتة ..

ـ هل كنت تأكل ؟!..

ـ لا ..

ـ على كل حال لن أضيع وقتك .. إن حياة العزاب هذه ..

ومد يده فى جيبه ـ أعنى أخرجها ـ ليرينى شيئا ما ..

ـ هل هذا يخصك ؟!..

كان كفه مفتوحا وفيه بطارية .. البطارية التى كنت أحملها معى حين دخلت شقته بالأمسْ ..!.. البطارية التى نسيتها فى الحمام حين اختبأت به ، ثم فررت من الشقة ناسيًا كل شىء عنها ..

والآن .. سأكذب كذبة صغيرة لكنه لن يصدقها ، فتحت فمى فقال بصرامة :

ـ لاتكذب ..!.. أنا أعرفها جيدًا .. لقد تأملتها وأدرتها فى كفى فى زيارتى الأولى لك ، وكانت موجودة على مائدة غرفة الجلوس .. والسبب هو أننى لم أر مثلها أبدًا .. إننى لم أر من قبل بطارية مصنوعة فى رومانيا ..!!

ـ أنا ... أنا ..

ـ هكذا .. اتضح لى كل شىء ..

ثم نظر فى عينى فى ثبات .. وهمس من بين أسنانه :

ـ والآن هل تتفضل بالإيضاح ؟.. ما السبب الذى دعاك للتسلل إلى شقتى ليلة أمس ؟.. ولماذا حاولت قتلى وكدت تكسر أنفى ..؟!

ولمحت يده اليسرى تخرج من جيبه وفيها .. مطواة قبيحة الشكل ، شهرها فى وجهى وهو يقول :

ـ تكلم ..!

لقد انتهى زمن الأقنعة .. ولم يعد لديه سبب للتظاهر بالمودة ، ولم يعد لدى وقت للتظاهر بالسذاجة .. إنه يعرف أننى أعرف أنه يعرف !

ولم يعد أمامى إذن سوى الصراخ .. والصراخ فقط .. لكنى سأؤجل ذلك حتى آخر لحظة ..

قلت له فى هستيريا :

ـ ابتعد عنى يا آكل البشر !

ـ ما هذا الهراء ..؟!

ـ اسمع يا صديقى .. أنت فى مأزق !.. إن كتيبة كاملة من رجال الشرطة تحاصر البيت .. وهم على استعداد لتمزيقك بمجرد سماع صرخة منى .. صرخة واحدة .. والآن ناولنى هذا السلاح قبل أن يؤذى أحدا ..

علامات دهشة حقيقية على وجهه وتساؤل :

ـ ما هذا السخف ؟.. أى رجال بوليس .. وأى ..

هل عيناى تخدعاننى أم أنه يرتجف ؟.. يرتجف وقطرات عرق بارد تسيل على وجنتيه .. عيناه زائغتان .. شفتاه ترتعشان .. ثم .. تهاوى على الأرض كما يموت الثور فى نهاية مباريات المصارعة الأسبانية ، بعد ما تدميه جروحه .. وكان أول شىء فعلته ، هو أننى أخذت المطواة من قبضته المتراخية ..

ثم بدأت أفحصه ..

إن هذا الفتى مريض حقيقة ، ولايدعى شيئا .. ولكن ماذا دهاه ؟.. النبض المتسارع .. العرق البارد .. الضعف العام .. لاأعرف سببًا لكل هذا ، لكنى لن أتركه يموت كالكلب العقور أمامى ، حتى ولو كان آكل لحم البشر ..

سارعت إلى جهاز ضغط الدم الخاص بى ، ولففته حول ذراعه ، وبدأت أنصت .. لكن .. لابد أن هذا الفتى يمزح معى ..

من المستحيل أن هذا هو ضغط دمه الحقيقى ..!

ولمحت شفتيه ترتجفان وهو يهمس فى ضعف :

ـ اسرع ..!.. ك .. كورت .. كورتيزو ..

حسن .. حسن .. إن هذا الوحش يعرف ما يناسبه من علاج ، ولئن كان قرارى صائبًا أو متهورًا ، فإن عندى أمبولين من (الكورتيزون) ومحقنًا زجاجيًا ..

لن يتسع الوقت لغليه .. على كل حال هو لم يُستعمل بعد ..

وهكذا كسرت الأمبولين ، وملأت المحقن وأفرغته فى وريده ..

لقد بدأ يتحسن لاشك فى هذا ..

ولاأدرى إن كان هذا من حسن حظه ، أم من سوء حظى ..! على أن لدى نظرية معقولة عن حقيقة ما يحدث أمامى ، لاينقصها سوى البرهان الذى سيقدمه لى هذا التعس عندما يفيق تمامًا ..

* * *



سارعت إلى جهاز ضغط الدم الخاص بى ، ولففته حول ذراعه ،
وبدأت أنصت ..

الآن نحن جالسان على مائدة الطعام نتبادل النظرات ..

هو على طرف المائدة ينظر إلى فى خمول وضعف وهو يرتجف .. وأنا على الطرف الآخر ألوح بالمسدس فى يدى ، وأنا أرمقه فى شك وتوتر ..

ربع ساعة مر علينا فى هذا الوضع ..

ـ والآن ..؟

قلتها فى صوت حاولت أن أجعله قاسيا .. فلم يرد علىّ وأطرق ..

ـ أنت مصاب بفشل الغدة فوق الكلوية ، أو ما يسمونه (مرض أديسون) .. أليس كذلك ؟

ـ بلى .. هذا هو الاسم الذى قالوه لى ..

قالها وهو يرفع وجهه نحوى فى دهشة .. فقلت :

ـ وأنت لاتتحمل أى نوع من الجهد العصبى أو البدنى ومصاب بإسهال ؟

ـ نعم .. بالفعل ..

ـ إن هذا يفسر الكثير .. إن مرض (أديسون) ينجم عن عدم قدرة الغدة فوق الكلوية على إفراز مادة الكورتيزون ..

والنتيجة .. هزال شديد .. ضعف عام .. انخفاض مريع فى ضغط الدم .. خشونة غير عادية فى الكفين ، ثم ذلك اللون الأسمر الغريب الذى أثار ارتيابى ودهشتى ..

إن حالتك الآن واضحة ، وعلاجها الوحيد هو الكورتيزون ، وأنت تعرف ذلك خيرًا منى .. لكنه علاج يستمر مدى الحياة ..

وأعتقد أن رغبتك فى التوابل لها علاقة ما بمرضك ..؟

نظر إلى كفه فى شرود وقال :

ـ إنها تلك الرغبة المجنونة إلى الملح !.. أحيانًا تصيبنى حتى أكاد أجن !

قلت فى ثقة وأنا أضع المسدس على المائدة فى متناول يدى :

ـ هذا بسبب احتياج جسمك إلى الصوديوم .. المادة التى يفتقر إليها فى مرض (أديسون) هذا .. ولعل ذلك ، هو سبب عدم تحمل معدتك لطعم الحلوى ..

وأظن أن هذا المرض سبب اكتئابك وانعزالك وغرابة أطوارك ، لأن له ـ أيضًا ـ جانبه النفسانى ..

هز رأسه مؤيدًا فى ضيق ..

بعد فترة صمت قصيرة قلت له وأنا أشعل سيجارة :

ـ والآن هناك أشياء معينة لاأفهمها ..

لماذا استقلت من عملك بعد حادث الطائرة ؟ ولماذا غيرت اسمك وسكنك ؟

نظر إلى فى ذهول .. وهتف :

ـ كيف عرفت ؟!

ـ أنا أعرف كل شىء عنك تقريبًا ..والآن أجب عن سؤالى ..

رفع رأسه للسقف .. وتنهد :

كانت أعراض المرض قد ظهرت علىّ .. تغيرت ملامحى وطباعى ..

ولم أرد أن أرى علامات الرعب أو الشفقة على وجوه من أحببت ، ولم أرد أن أوذيهم بيدى أو بلسانى .. لهذا تركت عالمى إلى أرض أخرى لاتعرف اسمى أو وجهى ، استبدلت معاشى وبعت قطعة أرض صغيرة أعيش من ثمنها حتى اليوم .. ولهذا تجنبت كل جيرانى ..

ـ سؤال آخر : ماذا كنت تأكل فى الصحراء قبل أن ينقذوك ؟!

بدت علامات الاشمئزاز على وجهه .. وهمس :

ـ أى شىء .. فئران .. أفاعى .. سحالى ، أما زملائى فكانوا قد ماتوا وتكفلت بهم الذئاب .. كنت أعرف قواعد التغذية السليمة من أيام (فرق الصاعقة) ؛ لهذا احتفظت بكامل صحتى ..

ـ آه ..!.. جزء آخر من لغزك يتضح لى ..

ـ لحظة !.. بأى حق تستجوبنى ؟!

مددت يدى للمسدس ورفعته نحوه :

ـ لأنى أنا الذى أمسك المسدس ، ولو كنت أنت الذى تمسكه لكان من حقك أن تعرف كل شىء عنى ..!!.. سؤال آخر :

كيف جئت بقطرات المطر فى تلك الليلة ولم تكن تمطر ؟!

ـ أنا لم أقل لحظة إنه مطر .. كنت أحاول إصلاح (الدش) .. وأنت تعرف مشاكلى الأبدية مع السباكة فى شقتى ..

ألقيت السيجارة على الأرض محاولاً أن أبدو مرعبًا .. وقلت :

ـ لم يزل لدىّ المزيد من الأسئلة ..

كيف تفسر العظام التى ترمى بها من المنور .. ونزهاتك الليلية الغامضة ؟

ثم ـ وقبل كل شىء ـ الأجزاء البشرية الممزقة التى تملأ شقتك ؟.. غرفة النوم .. المطبخ .. بانيو الحمام ..

نظر إلىّ فى حدة .. وغمغم وقد تصلبت قبضتاه :

ـ منذ متى يسأل اللص صاحب البيت عن تفسير لمحتويات بيته ..؟!

نهضت فى عصبية حقيقية .. وركلت الكرسى :

ـ ألم تفهم أيها السفاح أنك قد انتهيت ؟.. إن رجال الشرطة يعرفون كل شىء عنك ، إن قتيل الأسكندرية هو آخر لحم بشرى تذوقه فى حياتك ..!

ـ لحم بشرى ..؟ أتذوقه ..؟

وأخذ يتفكر قليلاً فى كلامى .. ثم انفجر ضاحكًا .. ضاحكًا يستمتع إلى كلامى وأسئلتى واتهاماتى .. ضاحكًا يلتقط أنفاسه ، ثم إنه نهض غير عابئ بمسدسى ، وأمسك بذراعى .. وفى رفق ـ كأنه يأخذ طفلاً إلى الملاهى ـ دعانى أن أصطحبه إلى شقته .. فقلت متراجعًا للوراء ..

ـ مر أمامى أولاً ..!

* * *

وفى شقته الكئيبة ، دعانى إلى المطبخ .. وفتح الثلاجة وأخرج تلك القطع الآدمية الممزقة .. ودعانى أن ألمسها ، ترددت .. لكنه أصرّ .. ومد إصبعه يضغط بها على إحداها ..

أمام عينىّ المذهولتين ، لمحت أثر إصبعه واضحًا غائرًا فى اللحم !..

ـ هل ترى ؟.. هذا صلصال !.. كل القطع التى رأيتها أمس كانت قوالب صلصالية .. بروفات تماثيل أكبر حجمًا ..

إننى أمارس النحت على نطاق واسع .. وأعتقد أنك ـ على ضوء البطارية والرعب المسيطر عليك ـ فقدت القدرة على التمييز ..!

انتابنى الذهول .. لكنى كنت مصمما على التأكد ، حتى آخر قطعة صلصال وجدتها فى حوض الحمام .. لم يكن ثمة شك فى هذا .. كلها قطع بريئة ، تم تشكيلها ببراعة فائقة ودقة تشريحية متناهية !

ولأول مرة - منذ ساعة - لم أجد داعيًا للمسدس ، فوضعته فى جيبى وسألته ، وقد فقدت أكثر عدائيتى إن لم يكن كلها ..

- والعظام ؟.. هل لديك تفسير لها ؟!..

ابتسم فى رقة .. وجلس على حافة البانيو قائلا فى شرود :

- لقد فقدت جذورى وأصدقائى ، وأصبت بمرض عضال ..

لهذا فى وحدتى قررت أن أعيد تشكيل ذاتى .. لقد أردت دائمًا أن أكون فنانًا عبقريًا مثل (أوجست رودان) .. هل تعرفه ؟

- لا ..

- إنه مثال فرنسى عبقرى ، لابد على الأقل أنك رأيت تمثاله (المفكر) ..

وهناك - حيث جلس على حافة البانيو - وضع قبضة يده تحت ذقنه ، وقطب جبينه محاكيًا ذلك التمثال الشهير الذى أعرفه بالطبع ..

- لقد بلغ (رودان) من دقة المحاكاة التشريحية ، أنهم اتهموه بأنه يصب تماثيله من البرونز فوق نماذج بشرية حقيقية .. واتهموه بأنه يضع عظامًا بشرية لتشكل هيكلا لتماثيله ..

وكنت أعرف أنهم جميعًا - (مايكل أنجلو) و (رودان) و (مختار) - درسوا التشريح بعناية قبل أن يدرسوا النحت .. لهذا قررت أن أبدأ مثلهم .. حصلت على هذه العظام من أحد طلبة الطب وشرعت أدرسها ..

لكنى غير طبيعى .. ولحظات يأسى لاتنتهى .. ربما بسبب المرض .. ولكم من مرة انتابنى الإحباط ، فألقيت بكل ما فى يدى من المنور .. هذا هو سر تكدس العظام هنالك ..

- وخروجك الليلى المنتظم ..؟

- أقول لك إننى غير طبيعى .. لقد جعلنى مرضى شديد التقلب .. هناك أوقات معينة أشعر فيها أننى سأجن لو لم أترك هذه الجدران الأربعة التى تجثم فوقى ..!

- يبقى موضوع سفرك المتكرر للأسكندرية ..

- لماذا يسافر أى نحات للأسكندرية ؟!.. سؤال سخيف ..

إن الأسكندرية هى أنشودة الفن .. الامتزاج الخالد بين الفن الرومانى والفرعونى والإسلامى .. الأسكندرية هى منبع إلهامى ، ولو لم أرها مرتين فى الأسبوع على الأقل فلابد أن أجن !!

ـ ولم لاتسافر بسيارتك ؟!

ـ سؤال غريب .. هذه حريتى الشخصية فيما أظن .. ولايمكنك أن تلوم إنسانًا لايجيد القيادة أو يحب القطارات مثلًا ..

ـ هذا حق !..

وتفكرت حينًا فى نقاط غامضة أخرى .. ثم قلت :

ـ وبالطبع فإن أصوات الدق الليلية كانت نتيجة لنشاط خاص بالنحت ..

ـ هذا صحيح .. وأعترف أن جيرة الفنانين مزعجة جدًا ..

هكذا ..

لقد كان هذا النص مجموعة من التناقضات والأطوار الغريبة ، التى لم يكن تفسيرها ممكنًا إلا على هذا الضوء الشنيع .. أنه يأكل لحم البشر ..!

ولكم كنا مخطئين ..!

ولكم ارتعبنا وأرعبنا دون مبرر واضح ..

وهنا تذكرت (عادل) يقول بصوته الواثق :

ـ إن الناس لايفهمون المنطوى أبدًا .. قد يفهمون الوقح وقد يفهمون المزعج .. لكن المنطوى المهذب لابد أن يثير لديهم الظنون ..!

* * *

ولكن ..
من هو سفاح الأسكندرية إذن ؟

١٠ ـ السفاح ..

نحن الآن نشاهد الفصول الأخيرة من قصة سفاح الأسكندرية ..

الزمان: الساعة الثانية ظهرًا من يوم ٦ مايو سنة ١٩٦٥

المكان: زقاق ضيق قذر في إحدى الضواحي التي لن أذكر اسمها .. سيارة شرطةٍ محملة بالجنود تسدّ إحدى ناحيتي الزقاق ، وثلاث أو أربع سيارات تقف متراصة عند الناحية الأخرى ..

ثمة بعض الفضوليين والمتسكعين يراقبون ما يحدث ، لكن رجال الشرطة يبعدونهم في صرامة ، ويساعدون على إجلاء السكان ..

(عادل) يقف بجوار سيارته وبابها مفتوح ، بينما أجلس أنا في المقعد المجاور للسائق منكمشًا بادي التوتر .. فقد أصرّ (عادل) على أن أرى نهاية القصة .. بشرطي يتقدم ويقوم بتثبيت إبرة إطلاق النار لبندقيته الآلية .. وأشياء أخرى لا أعرف كنهها ـ لأني لست خبيرًا بالأسلحةِ النارية ـ لكنني أراهم جميعًا في الأفلام يفعلون أشياء مماثلة ..!

كليك ..!.. كراك !.. كليك ..!..

هذا الصوت المرعب الذي يخبرك أن البندقية صارت أداة قتل حية ويقظة ..! رفعت رأسي إلى (عادل) الذي وقف مهيبًا مرعبًا ويداه في خصره .. وقلت ..

ـ (عادل) .. أنا خائف ..

ـ هذا ليس خبرًا جديدًا ..

ـ ألن تنادوا عليه بمكبر الصوت ..؟

ابتسم في سخرية وهو يضرب إطار السيارة بطرف حذائه :

ـ نعم .. ولم لا نقول له : استسلم يا مرسي .. البوليس يحاصرك من كل ناحية ؟!.. أنت ترى أفلامًا كثيرة يا (رفعت) ..!.. إنك ساذج .. ثم رفع عقيرته في صرامة :

ـ أريد ثلاثة أو أربعة هناك ..! نحن لا نمزح ..

وعلى الفور اندفع ثلاثة رجال يقفون بجوار إحدى نوافذ الطابق الأرضي .. وسمعت ذلك الصوت المشئوم إياه .. كليك كراك كليك !.. فتجمد الدم في عروقي .. ستحدث مجزرة ها هنا بعد دقائق ..

★ ★ ★

قلت لـ (عادل) :

ـ والآن .. من هو ؟!

قال وهو يشعل سيجارة :

- اسمه (صالح محمود) .. وهو عاطل ومعقد ومفلس حاليًا ..

- ومن وشى به ؟

- زوجة صاحب البيت الذى يعيش به ، شكت فى تصرفاته واحتفاظه بكل هذه السكاكين .. ثم وجدت قطرات دم على السلم .. وهكذا ..

- ولماذا كان يفعل ذلك ؟

ياصديقى لايمكن معرفة طريقة تفكير سفاح .. بعضهم يملك عقدًا نفسية .. وبعضهم يعانى جنون الاضطهاد .. وبعضهم يبحث عن الشهرة .. وبعضهم يعانى رواسب سادية قديمة ..

هذه مشكلته وليست مشكلتنا ..

تنهدت فى حسرة :

- وأنا الذى خاطرت وتعذبت من أجل ظن لاوجود له .. واتهمت شابًا مريضًا حساسًا بأبشع التهم .. بل ضربته ضربًا مبرحًا ..

- لست وحدك .. بل أنا والدكتور (شاهين) ، وكل رجالنا الذين تجمدوا فى ليل الشتاء وهم يراقبون هذا الفتى ..

لقد كان الجواب تحت أنوفنا هنا فى الأسكندرية ..

- على كل حال لم يحدث أن اجتمعت كل هذه الظواهر الخادعة من قبل ، ولو أن (شيرلوك هولمز) فى مكاننا لفعل نفس الشىء ..

- كانت فكرة الكانيبالزم شططًا لاداعى له .. إنه مجرد سفاح عادى ، إذا كان هذا التعبير جائزًا ..

وهنا سمعت صوت الرجال يتعالى ..

ورفعنا رءوسنا لنجد شخصًا يتحرك فوق سطح البيت الآيل للسقوط ، وهو يترنح كى لايسقط .. ويفرد ذراعيه على استقامتهما ..

كان وجهه وجه شاب تراه فى كل مكان وفى كل يوم ، برغم لونه الغريب ..

وكان يرتدى (بول‌أوفر) وبنطلون بيجامة قذرًا ممزقًا عند الركبتين .. التفت (عادل) إلى شرطى بجواره .. وهتف :

- سعد .. هاته !

وعلى الفور اندفع سعد إلى مدخل العمارة القذر .. واختفى فى الظلام ..

قلت لـ (عادل) :

- إنه يبدو آدميًا ..!

نظر إلىّ فى استخفاف :

- وماذا كنت تتوقع ؟.. إن السفاح ليس شخصًا منكوش الشعر ، زائغ النظرات ، نامى اللحية ، يجرى فى الشوارع شاهرًا سكينًا واللعاب يسيل من شدقيه !

وهنا دوّى صوت صراخ وحشى من على السطح ..

نظر (عادل) إلى الرجال فاندفعوا عبر مدخل العمارة ..

وسمعت صوت معركة - دون طلقات لحسن الحظ - انكمشت لها أكثر فأكثر ، صوت شخص يستغيث .. صوت لكمات .. عبارات سباب .. صراخ ..

ثم برز الرجال وهم يمسكون بشىء كالخنزير البرى ..

كان (صالح) فى وسطهم وقد تورمت عيناه وسال الدم من شدقيه وانتابه هياج لايصدق ، وكان يتهدد ويتوعد ويرفض المشى ، من ثم كانوا يجرّونه جرًا ..

وظهر زوج من الأصفاد كئيب المنظر ..

وفى ثوان التف القيد حول معصمه .... و ....

لاأدرى لماذا ذكرنى منظره بتلك الكلاب المسعورة ، التى كان شرطى الكلاب يجرّها بأنشوطة من الجلد ، فى نهاية قضيب حديدى طويل .. وكنت أرتجف حين أتخيل ما يمكن أن يحدث لو افلتت قبضة الشرطى من على قضيب الحديد هذا ..

وفجأة ..

وقبل أن أفهم ما هنالك ..

دفع الفتى الشرطى الذى يمسك بالطرف الآخر من القيد فى صدره ، فأوقعه أرضًا .. ثم - فى نفس اللحظة تقريبًا - هوى بالجزء المعدنى الذى كان يمسكه الشرطى ، على زجاج نافذة بالطابق السفلى .. وفى ثوان هشم الزجاج إلى قطع صغيرة .. والتقط قطعة .. ووثب علىّ حيث خرجت من السيارة ..

حدث كل هذا فى ثانيتين فلم يتمكن أحد من فعل شىء ..

ووجدت ذراع الفتى يلوى ذراعى للخلف ، وقطعة الزجاج الحادة فوق شريان عنقى (السباتى للأسف !) ..

لقد فرّ الكلب المسعور من حارسه !..

وصرخ فى هياج جنونى :

- لايقتربن منى أحد وإلا ذبحت لكم هذا الخروف !

شعرت بالزجاج يضغط عنقى يكاد يخترقه .. كان شرسًا ، وقد زاده الخوف توحشًا .. وشعرت أنفاسه اللاهثة الملوثة بالتبغ تلفح أنفى .. وكان قويًا بلا شك ..

بدأ الرجال يتراجعون فى بطء وارتباك ..

وحتى (عادل) بدأ كمن أسقط فى يده ..

- هكذا !.. أبعدوا هذه السيارات عن المدخل ..!

وأنا لست قويًا ..

لكنى أمقت أن يستغلنى أحد فى تعطيل العدالة ، ولا أحب أن ينعتنى شخص لا أعرفه (بالخروف) .. كما أنى أمقت الفظاظة وعدم اللياقة ..

وفى ثوان اتخذت قرارى ..

وفى ثوان نفذته ..

ألقيت بنفسى للخلف لأبتعد عن نصل الزجاج .. ثم لويت ذراعى عكس اتجاه ذراعه ، ورفعت قدمى راكلاً ساقه التى توازن عليها .. وهكذا سقط أرضًا ، وقبل أن يفهم شيئًا كان هناك عشرة رجال شرطة يثبتونه أرضًا ، ويحكمون تقييده .. مع توجيه بعض اللكمات لتهدئة حماسه ..

ولم أسمع عبارات التهنئة ..

ولم أسمع كلام (عادل) الضاحك وهو يربت على كتفى ..

ولم أسمع دقات قلبى ..

كنت أبحث عن مكان يصلح لفقدان الوعى ..!

الخاتمة ..

بعد أن حضرنا معرضه فى قاعة (جوته) بالإسكندرية ، أدركنا – أنا و (عادل) – أن (عزت شريف) قد بلغ الكمال فى فنه ..

وكان يقف هناك نحيلاً غريب اللون – ولكن مرتفع المعنويات – يتحدث إلى الحسناوات ورجل أو اثنين من رجال الصحافة .. وكان يتألق كالنجم ..

وحين سألنى عن رأيى فى معرضه الأول قلت له :

– سأقص عليك قصة لا أدرى أين قرأتها .. كان هناك مثال ينحت تمثال امرأة .. وكان يريد أن يصل للكمال فيه ..

وهكذا ظل يتقن ويتفنن فى صنعه .. عامًا بعد عام .. وعقدًا بعد عقد .. حتى انتهى منه .. وعندئذ وقف يتأمله فى ذعر .. ثم صرخ : يا إلهى !.. إنه يبدو حيًا ..!.. ثم خرّ ميتًا من فوره ..!

نظر إلىّ فى وجوم .. ثم قال :

– إنها قصة سخيفة على كل حال .. وعمومًا أنا لا أفهم ما تريد قوله ..

– وأنا كذلك .. لقد تذكرت هذه القصة لسبب لا أدريه ..

– ربما هو جنون ..

ـ أو تحذير من البحث عن الإجادة الكاملة ..

وهنا شعرت بـ (عادل) يجذبني ليقدمني إلى فتاة رقيقة بارعة الجمال تبتسم في حرج .. وسمعته يقول :

ـ معذرة لإنهاء المحادثة .. هذا دكتور (رفعت) يا (هويدا) .. هذه (هويدا) يا (رفعت) .. أرجو ألا تكونا نسيتما بعضكما .. هتفت في ذهول وأنا مندهش كيف لم ألحظ جمالها في تلك الأمسية :

ـ ربما نسيتني هي .. أما أنا فمستحيل ..

يبدو أنني قد تسرعت في قراري السابق ، ويبدو أن الوقت قد حان كي أكبر وأكون كالآخرين الذين يتحدثون عن الخطبة والمهر وقائمة الأثاث و ..... و ..... تلك الأسرار المرعبة ..

يبدو أن الوقت قد حان كي أستقر ..

قلت هذا لنفسي ، ولم أكن ـ للمرة المليون ـ أعرف أي ساذج أنا .. فقد كنت سأسافر إلى جزر الهند الغربية بعد شهرين ، وكنت سألقى هناك كابوسًا جديدًا من نوع خاص ..

ولكن .. هذه قصة أخرى !

د . رفعت إسماعيل

القاهرة في مايو ٩٢

[تمت بحمد الله]

روايات
مصرية للجيب

١١٣٣٦

ما وراء الطبيعة
روايات تعيس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة آكل البشر

إن الحديث عن آكلة لحوم البشر شيق دائمًا، بشرط ألا تكون أنت الضحية !... والآن أغمض عينيك وتخيل معي.. ماذا تفعل لو اتضح لك أن هناك آكل لحوم بشر في مدينتك.. بل في شارعك.. بل في دارك ؟! تخيل أن لك جارًا يأكل لحوم البشر، ويمارس طقوس (الكانيبالزم) بانتظام.. وهو الآن يدق بابك بعد منتصف الليل، طالبًا بعض التوابل..! أرجوك.. لا تفتح الباب..!!

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة الموتى الأحياء

الثمن في مصر

وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع